الفصل الثالث

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية

في عصر الخلفاء الراشدين

obeikandl.com

لم يتغير الوضع كثيراً في عصر الخلفاء الراشدين فيما يتعلق بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية عن عصر النبوة الزاهر ، وذلك أن عصر الخلفاء لم يكن إلا امتداداً لعصر النبوة حيث كان الرسول يمثل القدوة والأسوة إضافة إلي أن شغل المسلمين في العصرين كان منصباً على نشر الدعوة الذي وصل إلي مداه في خلافة عمر بن الخطاب ، كما بذل الخليفة أبو بكر الصديق جهداً واضحاً في إخضاع القبائل والأحياء العربية التي أعلنت الخروج على الإسلام وارتدت عنه ، كل ذلك يمثل سمات عصر الخلافة وبصفة خاصة أنه في خلافة كل من عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب تفجرت الفتنة الكبرى وأسلمت الدولة لحالة من عدم الاستقرار أثرت على العديد من نشاطات الحياة ، ما تقدم من سمات كان له دوره في رسم ملامح عصر الخلافة الراشدة فيما يتعلق بمسائل العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية ، وسوف نتابع دراسة تلك المسائل في ذلك العصر من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : العلـــم .

المبحث الثاني : التعلـم .

المبحث الثالث : التعليم .

المبحث الرابع : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر الخلفاء الراشدين .

المبحث الأول

العلـــم

بالفعل يعتبر عصر الخلافة الراشدة نقطة تحول خطيرة ومفترق طرق صعب في تاريخ الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام الناشئة وحضارته الواعدة ، فقد رحل الرسول الذي كان يمثل للإسلام ودعوته ودولته وحضارته كل شيء ، فهو القوام والركيزة والمنبع والمصب تلقى الوحي وصدع بالأمر ونشر الدعوة وأقام الدولة ووضع أسس الحضارة ثم جاءه اليقين فلبى نداء ربه وانتقل إلي جواره راضياً عما بلّغ وأدّى ومرضياً من ربه حيث أكمل به رسالات السماء وبشره في كتابه العزيز عندما قال له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾[1] ، وتلك كانت علامة الرحيل عن دنيا الناس إلي الملأ الأعلى وجنة الخلد .

ماذا كان موقف الدولة ورجالها ! لقد ارتبك واضطرب كل شيء وكاد الجميع أن يفقدوا الصواب ولكنه الإسلام ودولة الإسلام وفوقهم رب الإسلام ، فلقد تولى الخالق هذه الدولة برعايته وعنايته وألهم رجالها التماسك والتآلف والصواب ، لقد تملك الجميع خوف شديد على ركني الدولة ومصدري الشريعة على القرآن والسنة ، إلا أن الخوف جُلّه كان على القرآن الذي حذّر النبي من تفلّته من صدور الصحابة كتفلت الإبل من عُقلها فكان الأمر الجدير بالاعتبار الحري بالعناية والاهتمام هو القرآن وكيفية الحفاظ عليه وتحصيله من صدور الرجال وكتابته بين دفتي سجل ليسهل تناوله والرجوع إليه ، أما أحاديث الرسول فظل الصحابة طيلة القرن الأول الهجري لا يفكرون في تدوين الحديث واكتفوا بحفظه

---

[1] . سورة النصر .

واعتمدوا في استدعائه على قوة الحفظ والذاكرة عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم " لا تكتبوا حديثي " .

لقد كان العلم إذن طيلة فترة الخلافة الراشدة هو علم الكتاب وهو القرآن ، وبالرغم من أننا سوف نفرد جزئية مستقلة لتناول علم الدين بما فيه علم القرآن إلا أننا سوف نقدم في هذا الموضع بعض الإشارات فيما يتعلق بالتركيز على علم القرآن انطلاقاً من كونه العلم الوحيد الذي استحوذ على اهتمام المسلمين الأوائل في عصر الخلافة الراشدة .

كانت خشية الخلفاء والمسلمين على القرآن أشد من خشيتهم على أي شيء آخر بعد رحيل الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، وقد شرعوا يستشعرون خطورة أن يتركوا مصير القرآن معلقاً على حفظ الصحابة له ، فاستشهاد الصحابة في الفتوحات بدأ يقلل من عدد الحُفّاظ ، ولم يكن النسيان مأموناً وخاصة مع مرور الزمن ، كما أن تداول القرآن على ألسنة قبائل وأحياء العرب عرّضه للاختلاف في اللفظ والمعنى ، وهنا كان لا مفر من الوقفة الجريئة واتخاذ الإجراء الكفيل بحماية دستور الأمة وقوامها فكان القرار بتجميع القرآن .

جمع القرآن وقراءته وتفسيره :

- تعيين الرسول لكُتّاب الوحي :

لقد استشعر كافة أبناء الأمة وعلى رأسهم الرسول الكريم أهمية ومحورية القرآن الكريم في حياة تلك الأمة فعمل الرسول منذ بعثته وبدء نزول الوحي حاملاً آيات الذكر الحكم على تعيين الكتّاب الذين يكتبون القرآن من الروح الأمين بشكل مباشر ولعل أشهر كتاب الوحي كان زيد بن ثابت ، وكان كتّاب الوحي يكتبون القرآن على رقاق من الحجارة المصقولة والعظام وجريد النخل والجلد وغيرها من الرقاع ، وبالرغم من أهمية هذه الخطوة التي أقدم عليها الرسول الكريم في تدوين القرآن والحفاظ عليه إلا أنها لم تكن كافية لصونه من

التشتت والتوزع على أكثر من مكان ، وبعد رحيل الرسول الكريم بدا الأمر أكثر خطورة وجدية واستشعر الصحابة الخطر على القرآن الكريم من تشتت آياته في صدور الحفاظ والنسيان واستشهاد الصحابة وموتهم والتباين في لهجات القبائل فكان التفكير في الخطوة التالية أمراً واجباً .

– جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تركت فيكم ما إن تمسكت به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي " ، وهنا بدت الأهمية العظيمة للقرآن في حياة الأمة الناشئة بعد أن رحل الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، فاهتم الصحابة وفي مقدمتهم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجمع القرآن ، ولم تكن هذه المهمة سهلة بل كانت تحتاج إلي جهود مضنية وترتيبات دقيقة .

لقد كان جمع القرآن في مكان واحد إحدى المهام الثقال التي أثقلت كاهل الأمة الفتية والدعوة الناشئة ، فالقرآن يحمل الشرع بكل ما يحويه من شريعة وشعيرة ولابد من جمعه في شكل يتواءم مع قيمته ومنزلته وأهميته في حياة الأمة ، هذا في الوقت الذي تطايرت حركات الارتداد والخروج على الإسلام والربط بين المسألتين قد يكون واضحاً ، فالقرآن بجمعه وحفظه والتمسك به دستوراً ومنهجاً للأمة قد يَجُبّ نزعات الكفر المتأصلة في حياة الكثير من أعراب العرب وأحيائهم ويحفظ على الدولة كيانها المعنوي والقيمي ، يرتبط بهاتين المسألتين مسألة ثالثة وهي أن الدولة الناشئة تتأهب للانطلاق بدعوتها إلي الآفاق محققة أمر الله ورسوله في التبليغ إلي أهل الأرض لتحقق لتلك الدعوة أهم سماتها وهي العالمية والإنسانية .

عمد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي تكليف كل من زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب بجمع القرآن وذلك بإعادة كتابته من ألسنة من يحفظونه فكان الرجلان يلتقيان بالمسلمين في مسجد رسول الله ثم يكتبون من أفواه الحفاظ ، وكم كانت هذه الخطوة شاقة وتحتاج إلي تدقيق ومراجعة ، وبالرغم من ذلك تمت ببراعة لأن الله قد كتب لذكره الحفظ والصون من كل تعديل أو تبديل ، ومن ثم تم جمع القرآن في صحف لأول مرة بشكل مجمع ومرتب ، وحفظت هذه الصحف عند أبي بكر الصديق حتى وفاته ، ثم انتقلت إلي عمر بن الخطاب طيلة فترة خلافته ، وعندما توفي انتقلت صحف القرآن الكريم إلي السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين وظلت عندها إلي شروع الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان في الخطوة التالية .

- كتابة القرآن مجمعاً في مصحف عثمان :

كانت صحف القرآن الكريم التي استقرت عند أم المؤمنين السيدة حفصة هي المرجع النهائي فيما يتعلق بالقرآن ، ولكن ذلك لم يمنع اختلاف القراءات ولم يمنع تعدد المعاني والدلالات وقد أوجد ذلك لغطاً شديداً في كثير من المواقف والأحكام ، وقد حدا ذلك بالخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان إلي أن يجمع القرآن في مصحف واحد ثم تنسخ منه نسخ وتوزع على جميع الأمصار ، وهنا ينتهي الخلاف أو الاختلاف ، فرجع الخليفة إلي صحف القرآن المحفوظة عند أم المؤمنين السيدة حفصة ، وألّف لجنة لهذا الغرض وهو كتابة القرآن في مصحف واحد، وتكونت اللجنة من : زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقامت اللجنة المعينة سابقاً بنسخ صحف القرآن الكريم في مصحف واحد ، ووُضعت جملة من القواعد لضبط عمل هذه اللجنة ، وكان من هذه القواعد ، وجود زيد بن ثابت في اللجنة وربما على رأسها وكان ذلك يمثل ضابطاً مهماً لأن زيد بن ثابت كان من أهم كتاب الوحي ، تكونت

اللجنة من ثلاثة من الثقاة المشهورين بالتقوى والورع والدقة والأمانة وثلاثتهم ممن يعرفون القراءة والكتابة في قريش ، ومعلوم أن العرب في معظمهم كانوا أمة أمية أي لا تعرف القراءة أو الكتابة ومن يعرف القراءة والكتابة كانوا قلة ، لقد قررت اللجنة عند اختلاف أعضائها الثلاثة مع زيد بن ثابت في شيء من القرآن أن تكتبه بلسان قريش وكان ذلك التزاماً وتنفيذاً لوصية الخليفة الراشد عثمان بن عفان المشرف على جمع القرآن في مصحف واحد حيث قال للجنة " إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم " .

وبعد أن فرغت اللجنة من كتابة القرآن مجمعاً في مصحف واحد عُرف ذلك المصحف " بمصحف عثمان " أرسلت نسخة منه إلي كل مصر من الأمصار وردت صحف القرآن الأصلية إلي أم المؤمنين السيدة حفصة ، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى ، وهنا ظهر المصحف المعروف لدينا الآن وخرج مبرأً معافاً من أي تحريف أو تغيير .

- قراءة القرآن :

هكذا كان القرآن وتجميعه والحفاظ عليه من التعديل أو التحريف ونسخه في مصحف واحد هو شغل المسلمين الشاغل طيلة عصر الخلافة الراشدة بوصفه مسألة معتقدية وشعائرية تمثل قمة أولويات الدولة الإسلامية وخلافتها ، إلا أن تجميع القرآن ونسخة في مصحف واحد قد ارتبط بمسألة أخرى مهمة وهي قراءة القرآن .

إذ أن كتابة القرآن تختص بشكل حروفه وتشكيلها وهيئة كلماته وضبطها وإعرابها ، وهذا يمثل الشق المرئي من القرآن وهو يكافئ نصف معانيه ومضامينه ودلالاته ، أما نطق الحروف وإخراجها ولفظ الكلمات وتمرير أجزائها على آلات النطق العضوية المختلفة من حنجرة وقصبة هوائية وحلق ولسان وشفتين فيمثل الشق المسموع من القرآن وهو يكافئ النصف الآخر من معانيه ومضامينه ودلالاته ومن ثم كان الاهتمام بقراءات القرآن .

لقد ارتبطت كتابة القرآن وتجميعه في المححف الموحد بالقراءة ، إذ أن معاني الأشياء ودلالاتها أولاً وقبل كل شيء هي سماعية ، ثم تنتقل تلك الدلالات والمعاني إلي التعبيرات الصوتية التي تخرجها في شكل مضامين وتراكيب صوتية ذات معنى متفق عليه ، ثم تتحول المضامين والتراكيب الصوتية إلي إشارات ورموز شكلية متفق عليها وهي الكتابة ، وهكذا تكون اللغة مسموعة ثم مكتوبة . ولقد مر القرآن بهاتين المرحلتين . القراءة المسموعة ثم الكتابة المرئية ومن هنا ارتبطت قراءة القرآن بكتابته وأصبح من الضروري أن يتطابق المعنى والمضمون المقروء المسموع مع المكتوب المرئي ، وهذه القاعدة المهمة كانت هدفاً مهماً سعى إلي تحقيقه المسلمون الأوائل حتى يضمنوا للقرآن الصون والحماية ضد عوامل التحريف أو التبديل التي يمكن أن تأتي مع الزمن .

وبالفعل عانى القرآن الكريم من بعض الاختلاف في لهجات وألسنة قبائل وأحياء العرب وللتغلب على هذه المشكلة تم اختيار سبعة من أئمة القراء ، وهم المشهورون بالثقة في مختلف أقاليم الدولة والمعروفون بالعلم والدراية والمشهود لهم بالأمانة والتقوى والورع حيث اعتبرت قراءاتهم هي القراءات السليمة المعترف بها وهم : ابن عامر المتوفى في عام ١١٨ هـ . وابن كثير المتوفى في عام ١٢٠ هـ ، وعاصم بن أبي النجود المتوفى في عام ١٢٧ هـ ، وأبو عمر المازني البصري المتوفى في عام ١٥٤ هـ . وحمزة بن حبيب الكوفي المتوفى في عام ١٥٤ هـ ، ونافع بن عبد الرحمن المتوفى في عام ١٦٩ هـ ، وأبو الحسن على الكسائي المتوفى في عام ١٨٩ هـ .

وانطلاقاً من الارتباط العضوي الشديد بين قراءة القرآن والدلالات والمعاني الخاصة بألفاظه وعباراته وآياته كان الربط بين علم القراءات وعلم التفسير ، فالقراءة هي المرحلة الأولى للتفسير . حيث أنها تفسر القرآن وتوضح ألفاظه وآياته بالنطق والتحليل الصوتي ، وعليه فالقرآن إذا لم يُقرأ قراءة صحيحة فلا يمكن تفسيره ، أو ربما يُفسر بغير معانيه ومقاصده

الأصلية، والخلاصة أن القراءات هي المدخل إلي تفسير القرآن الذي كان أحد المجالات والنشاطات المهمة للعلم في عصر الخلافة الراشدة .

– تفسير القرآن :

قد يتبادر إلي الذهن سؤال بسيط ومنطقي ولكنه في ذات الوقت مهم وحيوي في هذا السياق من تحليل العلم في عصر الخلافة الراشدة وهو : لماذا كان الاهتمام بتفسير القرآن في عصر الخلافة الراشدة ؟ يقف وراء الإجابة على هذا السؤال نوعان من الأسباب ، النوع الأول ، أسباب عامة ، النوع الثاني : أسباب تتعلق بعصر الخلافة الراشدة بشكل خاص :

• أما عن الأسباب العامة فهي تتمثل في الآتي :

○ الأسلوب البلاغي والتراكيب اللفظية التي تتسم أحياناً بالغموض والمعاني والدلالات العميقة التي جاء بها الذكر الحكيم مما أعجز أهل اللغة والبيان من العرب ، جعل المسلمين الأوائل يختلفون فيما بينهم في تحديد المعاني والدلالات التي تؤثر على استنباط الأحكام ، وقد حدا ذلك بالمجتهدين إلي وضع تفاسير للقرآن الكريم تحقق أكبر قدر من الاتفاق ، وبذا يضيق نطاق الاختلاف والتباين بين المسلمين فيما يتعلق بالمعاني والدلالات واستنباط الأحكام ، ومن شأن تلك التفاسير أن تضع أساساً وقواعد ثابتة لمن يرد من الأجيال الإسلامية التي ستكون أقل إلماماً بلغة القرآن وأسلوبه وألفاظه ومعانيه ، وهذا ما نعانيه في أيامنا .

○ لقد أفسح القرآن العظيم مجالاً رحباً لأخبار الأولين وقصص السابقين ، ساقها الحق تبارك وتعالى على سبيل العظة والعبرة ، ولم يتيسر الإلمام بتلك الأخبار إلا لقلة من أهل العلم الذين عاشوا في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، فكان على هؤلاء أن يضمنوا تفاسير القرآن تلك الأخبار والسِيَر حتى يقدّر للآخرين أن يطلعوا عليها ويدرسوها كما أراد لها

الخالق سبحانه فيظل القرآن مصدراً لتلك العظة والعبرة إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

○ هناك شق من آيات الذكر الحكيم لم تتناوله السنة المطهرة بالتفسير والإيضاح أو بالتفصيل والتحليل وبقى تفسيره للعقل والمنطق ، فكان من الواجب على علماء الأمة والمجتهدين منها أن يعكفوا على إعمال العقل وتحكيم المنطق لتفسير هذا الشق من القرآن .

○ إلي جانب ما تقدم كان هناك شق من آيات القرآن وضعت قواعد وأصولاً عامة لكثير من الأحكام في شتى مجالات الحياة ، وتركت الفروع للمستجدات والمتغيرات ، وكذلك سكتت السنة المطهرة عن ملء تلك الفروع فيما عرف " بالفراغ التشريعي " والحكمة من ذلك أن يتولى أهل العلم والحكمة في كل زمان ومكان ملء ذلك الفراغ التشريعي بالتشريعات التي تتفق مع مستجدات الزمن وتطورات الأيام ، وقد ألحق أهل العلم في زمن الخلافة الراشدة بتفسير القواعد والأصول تفسيرات اجتهادية لملء الفراغ التشريعي المتعلق بالفروع .

○ لقد نزل القرآن بلسان قريش ثم ما لبثت الدولة الإسلامية أن توسعت وضمت بين أقاليمها أمماً وأجناساً شتى تتباين ألسنتهم ولكناتهم وكان من الصعب على هذا الخليط من البشر أن يستوعب لغة القرآن دون تفسير أو أن يفهم معاني القرآن ، وقد برزت قيمة وأهمية تفاسير القرآن في هذا الخصوص خلال عصر الخلافة الراشدة وما تلاها من عصور توسعت فيها الدول وامتدت أرجاؤها .

• أما عن الأسباب الخاصة بعصر الخلافة الراشدة فهي تتجسد في الآتي :

○ لقد أدى تفاوت إلمام الصحابة بمفردات اللغة العربية وأساليبها إلي تفاوتهم في فهم بعض آيات القرآن التي جمعت من البلاغة أحسنها واكتنزت من الفصاحة أنفسها ومن الأساليب اللغوية أرصنها وأجزلها ومن الألفاظ أقواها وأبدعها ، وترتب على ذلك اختلاف

ملحوظ لم يجبه إلا تفسير القرآن الذي كان بمثابة القاسم المشترك ولغة التفاهم والاتفاق حول المعاني والمضامين والدلالات التي تحملها آيات القرآن .

○ لم يقف الكثير من الصحابة بشكل تفصيلي ودقيق على عادات العرب القدماء وحتى الذين سبقوا البعثة وتقاليدهم الاجتماعية والدينية وغيرها من الموروثات الحضارية والثقافية والتكوينات الفكرية والعقلية والأخلاقية ، وهذا كله قد تعرض له القرآن الكريم ووصف معظمه وصفاً دقيقاً ، فكان على علماء الأمة تفسير القرآن لتبيين ذلك للصحابة والمسلمين .

○ يمثل تاريخ اليهود والنصارى موضوعاً مهماً من موضوعات القرآن الكريم إضافة إلي تطور علاقاتهم بالرسول الكريم والمسلمين خلال عصر النبوة وليس كل الصحابة على علم بتاريخ اليهود والنصارى ، وقد أدى تفاوتهم في الإلمام بذلك التاريخ إلي حدوث بعض الاختلاف الذي لم يفضه إلا تفسير القرآن الكريم .

○ كذلك من الأمور المهمة التي برزت في تفسير القرآن أن الصحابة لم يكونوا جميعاً على اتصال وثيق بالرسول الكريم ، فمنهم من كانوا أكثر ارتباطاً به ورافقوه في كل أحواله ، وهؤلاء كانوا أفهم وأفقه وأكثر إدراكاً لروح القرآن ، ومعرفة بالظروف والتطورات التي كانت الآيات تنزل فيها ، وإلماماً بألفاظ القرآن ، وهم بالتالي الذين أمكنهم أن يقوموا بتفسير القرآن .

○ لقد كان المسلمون الأوائل تواقين إلي تطبيق القرآن والعمل بأحكامه ، ومن ثم فقد عكفوا منذ رحيل الرسول الكريم على فهمه فهماً دقيقاً ، فقد بات دستور الدولة وأساس الحكم في أقاليمها المختلفة ، وقد أدى ذلك إلي الاهتمام بتفسير القرآن .

من جملة الأسباب التي قدمناها نشأ الاهتمام بتفسير القرآن وأصبح علم التفسير من أهم علوم القرآن ، وأصبح من المعتاد أن يقوم الصحابة بتفسير القرآن للناس في المساجد .

وقد عرف تفسير القرآن الكريم في عصر الخلفاء اتجاهات عديدة يمكن تناولها فيما يلي ، ويلاحظ أنها نفسها التي ظهرت في عصر النبوة الزاهر ، ولكن زاد عليها اتجاه جديد هو تفسير الرأي أو الاجتهاد :

○ التفسير بظاهر النص والأخذ بالمعاني القريبة المباشرة للألفاظ ، ووفق هذا الاتجاه كان الصحابة في عصر الخلافة الراشدة يبسطون معاني القرآن ودلالاته للناس حتى يتمكنوا من استيعابه والعمل به وفهم أحكامه .

○ التفسير بأسباب النزول ، ووفق هذا الاتجاه كان الصحابة في عصر الخلفاء الراشدين يعكفون على تفسير القرآن من خلال البحث في أسباب نزول الآيات .

○ التفسير بالأحاديث الصحيحة ، حيث يتم تفسير آيات الذكر الحكيم بما جاء في شأنها من أحاديث الرسول الكريم ، ويتطلب هذا الاتجاه من التفسير قدرة على الحفظ والتذكر وتدقيق الأحاديث الصحيحة ، وقد أفادت هذا الاتجاه مصاحبة الصحابة للرسول ، وارتباطهم به وتلقيهم عنه مباشرة ، إلا أنه في مرحلة تالية دخل من الأحاديث ما ليس بصحيح ، وذلك لتفسير بعض الآيات عن هوى ولمآرب ترتجى ، وسوف نوضح ذلك في حينه .

○ تفسير القرآن بالقرآن . كذلك ظهر في أواخر عصر الخلافة الراشدة من عمد إلي تفسير آيات القرآن بآيات أخرى ومن ثم قيل أن القرآن يفسر بعضه .

○ تفسير الرأي أو الاجتهاد ، في أواخر عصر الخلافة الراشدة نشطت إلي حد ما الحركة العلمية ، ونضجت كثير من الآراء ، ووضع المسلمون أيديهم على ما جاء بالقرآن الكريم من آيات تحض على التفكير والتأمل والتدبر والتبصر والعلم على غرار ما قدمنا في بداية هذا الجزء ، ومن ثم كانت انطلاقة استخدام العقل في تفسير القرآن العظيم ، وهذا الاتجاه

كان اتجاهاً شاملاً ، ووظّف كافة الاتجاهات السابقة في مواطنها الصحيحة ، ففي مواطن لا تحتمل أكثر من التفسير وفق ظاهر النص والمعنى القريب للألفاظ ، ومواطن أخرى تم الرجوع بخصوصها إلي أسباب النزول ، ومواطن فسرتها أحاديث الرسول الصحيحة ، وأخيراً كان هناك آيات تفسر بعضها ، كل ذلك جاء في تحليل عقلي منطقي يبدو فيه الاجتهاد والعطاء الإنساني ، وتبرز ملكة الفرد وعلمه في شتى المجالات مثل التاريخ وسير الأمم والقرون السابقة ، ناهيك عن الإلمام ببعض الظواهر الطبيعية وعناصر الوجود التي جاءت في الذكر الحكيم وأشرنا إليها في موضع خلى .

وما يمكن قوله في هذا الصدد أن تفسير القرآن وفق هذا الاتجاه الذي يعوّل على الرأي ويفسح المجال للاجتهاد قد ينتج عنه تباين في وجهات النظر في تفسير بعض الآيات والعبارات والألفاظ ، ولكن ذلك التباين لم يصل إلي حد التعارض ، بل ظل مجالاً للاجتهاد الذي يقود في النهاية إلي إبراز سمة أساسية في الإسلام وأصوله الشرعية هي أنها لا تغلق الباب أمام الاجتهاد وإعمال العقل الذي يلائم الفطرة السوية عند الإنسان الذي كرمه الله .

مما تقدم ننتهي إلي القول بأن عصر الخلافة الراشدة كان العصر الذي وضعت فيه الأسس والقواعد والأصول المتعلقة بعلوم القرآن الكريم التي بدأت بجمع القرآن في صحف ثم كتابته في مصحف واحد ثم الاتفاق على قراءاته وأخيراً الاتفاق على تفسيره ، ومن هنا ننطلق إلي القول بأن العلم في هذا العصر كان علم القرآن . وهذا أمر طبيعي فالأمة الإسلامية وحضارتها أساسها ذلك الكتاب العظيم الذي يتضمن منهج الحياة بكل مناحيها ومناشطها السياسية والاقتصادية والإدارية والحضارية والثقافية والاجتماعية .. الخ ، فلابد من أن تبدأ أول عصورها بترسيخ وتثبيت ذلك المنهج حتى يتضح في العقول والقلوب .

المبحث الثاني

التعلـــم

كان التعلم في فترة الخلافة الراشدة امتداداً له من عصر النبوة ، إلا أن تطور الحياة بتطور مساحة الدولة الإسلامية واحتوائها على شعوب مختلفة ذات حضارات وثقافات متنوعة أدى إلي تطور التعلم حيث ازدادت أعداد طالبي العلم ، وأصبح من المعتاد انتقال هؤلاء الطلاب إلي مراكز التعلم مثل المساجد ودور القرّاء في مراكز الدولة الإسلامية الرئيسية مثل المدينة المنورة والناشئة مثل البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها من الحواضر الإسلامية .

لقد استشعر المسلمون العرب أهمية أن يحصّلوا العلم ويبرعوا فيه حتى يتمكنوا من نقله إلي الشعوب التي دخلت الإسلام ، وقد كان ذلك شعوراً ذاتياً ساد الجيل الأول من أبناء الإسلام حيث قدروا مسئوليتهم وحددوا مهمتهم حق قدرها ، كذلك التقى هذا الشعور مع الحث والتشجيع من أولياء الأمور على تعليم أبناء هذا الجيل وإعدادهم لتحمل مسئولية الدعوة التي كانت في طريقها للانتشار بسرعة غير متوقعة .

وإذا انتقلنا إلي الشعوب الجديدة التي دخلت إلي الإسلام فنحن أمام أفراد دخلوا إلي الإسلام ولم يعلموا عنه شيئاً وهم في حاجة إلي أن يعرفوا عنه كل شيء ابتداءً من لغة الدين الجديد وانتهاءً بالأحكام وأصول وقواعد المعاملات وفق الشرع الإسلامي ، وكانت هذه مهمة ليست بالهينة إلا أن أبناء الأمة يعلمون يقيناً أنهم لها ، وعندئذ أصبحنا أمام نوعين من طلاب العلم : النوع الأول طلاب العلم من أبناء المسلمين العرب الذين يتلقون العلم ليتولوا مهمة تعليم المسلمين الجدد ، والنوع الثاني طلاب العلم من الذين دخلوا الإسلام ويرغبون في التعرف على الدين الجديد ويفقهون أصوله وقواعده ، ولا نستغرب إذا كنا سنعرف بعد سنوات قليلة أسماءً شهيرة لعلماء المسلمين من الشعوب التي دخلت الإسلام حديثاً .

ولعل من القضايا الجديرة بتكثيف الضوء في هذا الموضع ونحن نتحدث عن التعلم في عصر الخلافة الراشدة قضية العلاقة بين طلب العلم والجهاد ونشر الدعوة ، فمعلوم أن فترة الخلافة الراشدة شهدت أهم فتوحات الإسلام كما شهدت الدعوة الإسلامية أوج انتشارها وتقدمها في كافة الأرجاء ، وقد انخرط كل أبناء الإسلام في هذه العملية دون توان أو تردد ، وبالرغم من ذلك اقبلوا على طلب العلم وبرعوا فيه ، وصار الجهاد وطلب العلم أهم أمرين في حياة الجيل الأول من أبناء الإسلام .

اتسم طلاب العلم في عصر الخلافة الراشدة بنفس السمات التي اتسم بها سابقوهم في عصر النبوة الزاهر ، وهي الجد والمثابرة والأمانة والتواضع واحترام العلماء وتقديرهم والجمع بين العلم والعمل إضافة إلي سمات التقوى والورع والزهد .

وكان طالبو العلم في عصر الخلافة الراشدة يقسمون أوقاتهم بين الجهاد وطلب العلم والعمل وكان العمل يلجأون إليه عندما يفرغوا من الجهاد طلباً للرزق الذي يبتغونه لأنفسهم ولن يعولوا ثم للإنفاق منه على تحصيل العلم .

لقد كان طالبوا العلم من المسلمين الأوائل على يقين تام بأن تلقى العلم وتحصيله له غايتان : الغاية الأولى العمل به والإفادة منه بما ينمى عقل الفرد ويقوي إيمانه ويقوّم سلوكه ومعاملاته ، والغاية الثانية نشره ونقله بين الناس وتلقينه لمن أراد من طالبي العلم حتى يعم خيره المجتمع المسلم .

المبحث الثالث

التعليـم

دوماً سيكون هناك ترابط بين التعلم والتعليم ولكن من البداية نجد أنه من المجدي والضروري معاً أن نوضح حقيقة مفادها أن عملية التعليم بما فيها التعلم والعلم لم تكن عملية ذات طبيعة سياسية لها صفة الإلزام أو الجبرية من قبل الحاكم أو ولي الأمر ، وتتولى الإشراف عليها وتنظيمها جهات إدارية مسئولة بل كانت رغبة ذاتية تنبع من الفرد يقابلها شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ومن ثم تصبح عملية التعلم والتعليم رغبة ومسئولية متداولة ومتبادلة بين كل من الفرد والمجتمع تنظمها وُزَّاع أخلاقية تجعل أهدافها واضحة ويسعى الطرفان نحو تحقيقها . فالفرد المتعلم لا يدفعه أحد نحو اكتساب العلم بل يرغب في ذلك نظراً لما للعلم من فوائد متعددة . كذلك فالفرد العالم الذي يبث علمه بين الناس ويلقنه لطلبة العلم يفعل ذلك هو الآخر انبعاثاً من رغبة داخلية واقتناعاً منه بأن العلم ليس للاكتناز بل للتداول بين الناس ، ومن جماع هذا وذاك نشأت علاقة تبادلية بلورت مسئولية اجتماعية لكل منهما اتجاه الآخر ، هكذا كان التعلم والتعليم وبينهما العلم في عصر النبوة الزاهر وعصر الخلافة الراشدة حيث لم تبرز مسئولية الدولة بوصفها راعياً للعملية التعليمية بل حلت محلها مسئولية المجتمع مجسدة في أفراده وجماعاته التي يمكن تسميتها بجماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي ظهرت بشكل تلقائي بسيط وتبلورت في شكل شبه تنظيمي دون تدخل مباشر من ولي الأمر أو ما يمكن أن نسميه مجازاً الدولة .

لقد ظهرت أهمية التعليم في هذه الفترة ، وظهر كذلك ارتباطها بتطورات ومستجدات حلت على المجتمع الإسلامي ، ولعل أهم التطورات التي جعلت من التعلم والتعليم إحدى

ضرورات ذلك الوقت هو وفاة الرسول الكريم وانتقاله إلي الرفيق الأعلى ، فقد شعر جميع أبناء المجتمع الإسلامي أن الإسلام قد اكتمل وأن الدين قد تم ولابد من تعلم مصدريه القرآن والسنة فهما بعد الرسول الكريم المنقذان من الضلال والهاديان إلي سواء السبيل ، فاتجه الجميع لتحصيل العلم ، وكان العلم هو علم الكتاب .

من القضايا التي أعطت للتعليم سمة مميزة في عصر الخلافة الراشدة هو العلاقة التاريخية والموضوعية التي نشأت في ذلك الوقت بين التعليم ونشر الدعوة ، فالجيوش الإسلامية التي آلت على نفسها حمل الدعوة وتوصيلها إلي ما قدّر لها أن تصل إليه من شعوب الأرض كان لابد لها أن تستعين بالعلماء الثقاة في القرآن والحديث حفظاً وقراءة وتفسيراً حيث توكل إليهم بعد توصيل الدعوة إلي الشعوب المقصودة مهمة التبليغ عن علم ويقين ، إذن فمن أين لتلك الجيوش بهؤلاء العلماء . لقد وعى أبناء الأمة هذه المهمة وأدركوا خطورتها فاستعدوا لها أمثل استعداد بالتعلم وتلقى العلم والمثابرة في سبيل تحصيله والإجادة فيه إلي درجة الإحسان .

كانت مسئولية تعليم الشعوب التي دخلت إلي الإسلام مسئولية جسيمة ، فأبناء الأمة تحملوا على عاتقهم أن يحملوا الدعوة ويوصلونها إلي شعوب الدنيا والتوصيل يعقبه التبليغ والأخير يعنى الإعلام والإخبار وكليهما يعنى العلم ، والشعوب التي اعتنقت الإسلام على جهل كامل بذلك الدين الجديد وكان حاجز اللغة مانعاً قوياً حال دون وصول الإسلام إلي الشعوب التي دخلت إليه ومن ثم كان الدور البارز للترجمة التي ازدهرت بشكل لا يضاهى خلال الخلافة الراشدة التي أينعت فيها الفتوحات وانتشار الإسلام لأنها كانت مقترنة بكليهما ، كذلك ازدهرت أساسيات علوم أخرى لم يتنبه لها المؤرخون والدارسون وكلها أُخصبت في رحم الفتوحات الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي ، وسوف نوضح ذلك في حينه .

لقد كان تعليم اللغة العربية يسير جنباً إلي جنب مع تعليم أصول وأسس الدين الإسلامي وربما يسبقه ، بالرغم من أن الدين الإسلامي قد ساهم بشكل أساسي في نشر اللغة العربية في مناطق واسعة من العالم المسكون آنذاك ، إلا أن ذلك الانتشار قد ترتبت عليه مثالب ومضار عديدة لحقت باللغة العربية من جراء ألسنة الناطقين الجدد بها من غير أهلها ، وهذا ما دعى العديد من أصحاب البصيرة والخلفاء إلي ابتكار علمي النحو والصرف لضبط اللغة والمعاجم لحصر الكلمات العربية والنأي بها عن الكلمات الدخيلة من ألسنة أخرى .

وهنا تبرز مرة أخرى مسألة تستقطب الاهتمام وهي المتعلقة بدور الدولة إن جاز لنا استعمال هذا المصطلح السابق لأوانه في عملية التعليم وبصفة خاصة إزاء الشعوب التي دخلت إلي الإسلام ، واللافت للانتباه في هذا الصدد أن التعليم ظل مسئولية اجتماعية تبرز بجلاء مفهوم " الأمة الداعية " ، حيث بدا أن كل أبناء الأمة الذين يتمتعون بمقدرة علمية في أي مجال من مجالات نشر الدين مكلفين بما يشبه تكليف الفريضة بإخراج ما في وسعهم من العلم وبذله إلي طالبيه ، ولم يكن للدولة إذن دخل مباشر في عملية التعليم إلا من خلال رسم سياسات أو تيسير أمور إجرائية وتنظيمية غير مباشرة مثل تعيين بعض أصحاب الولاية العامة أو الخاصة أو القضاة أو العلماء الذين يمثلون الرمز لوجود الدولة ، أما العملية التعليمية بتفاعلاتها وحركيتها فكانت مغلفة بغلاف المسئولية الاجتماعية من ناحية والوازع الأخلاقي القيمي المستمد من مرجعيات الدين الإسلامي من ناحية أخرى ، وقد استمرت هذه السمة طاغية على عملية التعليم في الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسي الثاني بانهيار الخلافة على أيدي المغول وبداية عصر التفكك والانهيار ، ولقد عادت تلك السمة لتسم العملية التعليمية في العديد من أجزاء الدولة الإسلامية التي تفككت على مدى فترات تاريخية متقطعة ، وسوف نولى ذلك اهتماماً وتركيزاً في مواضع لاحقه من هذا المؤلف .

إن السمة التي تضفي على عملية التعليم والعلم طابعي المسئولية الاجتماعية والوازع الأخلاقي القيمي المستمد من جوهر الإسلام لتبرز الحقيقة الدالة على أن الإسلام دين العلم والمجتمع الإسلامي مجتمع يقدس العلم بحكم تكوينه وطبعه ، لقد كانت العملية التعليمية في عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة بتفاعلاتها الموضوعية ومظاهرها الشكلية التنظيمية تعبيراً عن الوعي الجماعي والسلوك المجتمعي المنبعثين من وُزَّاع أخلاقية ورغبات ذاتية مدفوعة بالإيمان العميق وليست توجيهاً فوقياً منحدراً من النظام السياسي الذي يرمى إلي غرس قيم بذاتها وتنميط سلوكات بعينها يرى فيها صالحه واستمراره .

لقد برز جلياً في عملية التعليم دور علماء الأمة الذين كانوا في معظمهم من الصحابة الأجلاء الذين عايشوا الرسول الكريم وتلقوا عنه ثم نقلوا عنه بعد انتقاله إلي جوار ربه ، لقد وضع هؤلاء أصول علم الكتاب بعد رحيل المشرع الثاني وتوقف الوحي عن زيارة السماء الدنيا ؛ لقد وضع هؤلاء الثقاة ما يمثل الأسس والأصول لمن سيأتي من مسلمي هذه الأمة إلي يوم الدين ، نشروا العلم في ربوع دولة الإسلام ابتداءً من مركز الدولة في المدينة المنورة وانتهاءً بالأقاليم والأمصار التي تدخل في دين الله ، وأنشأوا جيلاً من العلماء التابعين الذين تسلموا لواء العلم وورثوا الأمانة فكانوا خير خلف لأمثل سلف .

وإذا انتقلنا من الحديث عن الصيغة الاجتماعية والأخلاقية للتعليم والعلماء في المجتمع الإسلامي في عصر الخلافة الراشدة إلي الحديث عن وسائل التعليم وأشكاله ونماذجه وترتيباته التنظيمية في ذلك العصر ، لقلنا أننا مازلنا بصدد الحديث عن البعد الاجتماعي للعلم والتعليم حتى ونحن بصدد الحديث عن وسائل التعليم ونماذجه ، إذ أن تلك الوسائل والنماذج كانت دوماً إفرازاً للبيئة والواقع الاجتماعي ولم تكن أبداً فرضاً من النظام السياسي فالمجتمع الإسلامي كما بعث في الناس الرغبة في التعلم وأفرز لدى العلماء

الإصرار والجهاد من أجل نشر العلم وتعليم الناس خلق لدى هؤلاء وأولئك ملكة تلمس كافة السبل والوسائل التي تمكن كلاً من تحقيق مأربه .

لقد كان المسجد في الإسلام هو المؤسسة الاجتماعية السياسية الدينية الشعائرية الثقافية العلمية ، ولعل هذه الشمولية في وظيفة المسجد لتوضح لنا بشكل مباشر لماذا بدأ الرسول الكريم بوضع حجر أساس المسجد وبنائه قبل أن يبنى له بيتاً أو مسكناً يأويه ، أن المتأمل لدور المسجد في كيان المجتمع الإسلامي ليعجب أشد العجب من ذلك الدور الشامل فالمسجد كان مؤسسة سياسة الدولة وتدبير شئون الناس وتصريف أمورهم ودرسها واتخاذ القرار ومجلس الشورى أو التشاور ومقر مبايعة الحاكم ، كذلك كان المسجد مكان انعقاد مجلس الحرب وإعلان الجهاد ووضع خطة الفتوحات الإسلامية ، كما كان المسجد ساحة للقضاء والحكم ، وكان للمسجد دوره الشعائري في إقامة الصلاة والعبادة والاعتكاف وكان له كذلك دوره التثقيفي العلمي الفكري حيث عقدت فيه حلقات العلم منذ هجرة الرسول الكريم إلي المدينة المنورة وتأسيس مسجده الحرام وأستمر كذلك في عصر الخلافة الراشدة ، كذلك كان المسجد داراً لإيواء من لا دار لهم من المسلمين الفقراء ولعل أهل الصفة خير شاهد على ذلك الدور الاجتماعي لمسجد الرسول الكريم .

فالمسجد إذن كان مؤسسة تعليمية بكل معنى الكلمة ومسجد الرسول هو أول نموذج في هذا الخصوص ، وقد مارس الصحابة التعليم في مسجد الرسول في عصر الخلافة الراشدة بل إن مسجد قباء كان مؤسسة علمية في عهد الرسول الكريم ، فقد كان لأبي عثمان بن ربيعة حلقة دراسية مشهورة في ذلك المسجد .

في عصر الخلافة الراشدة تم اعتماد المسجد كمؤسسة تعليمية يجتمع في أروقته طلاب العلم والعلماء ، كان ذلك في مسجد الرسول بالمدينة المنورة وفي مسجد البصرة وفي مسجد الكوفة وفي مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط في مصر ، فقد انتظمت الحلقات التعليمية أو

حلقات العلم بتلك المساجد حيث كان العلماء يجلسون إلي الأعمدة في المسجد ويلتف حولهم الطلاب في شكل حلق أو دوائر يدونون ما يلقونه عليهم ويحاورونهم ، وقد جمعت دروس العلم في تلك المساجد إلي جانب علوم القرآن من تفسير وقراءة علوم اللغة العربية وآدابها من شعر ونثر ، فقد كان سعيد بن المسيب يدّرس الشعر العربي في مجلسه بمسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة في عام ٩٥ هـ ، كما كان واصل بن عطاء يعلم مذهب الاعتزال في مجلسه في مسجد البصرة بعد أن اعتزل الحسن البصري .

إلي جانب المسجد كان هناك كذلك دور العلم وخزائن الكتب ، وتشبه دور العلم أو دور القرّاء المكتبات العامة المتعارف عليها في أيامنا . أما خزائن الكتب فهي بمثابة مكتبات خاصة يفتحها أصحابها لطلاب العلم ، وهنا تبرز مرة أخرى وليست أخيرة الصفة الاجتماعية للعلم ووسائله ، إذ تنبعث الوسائل التعليمية من ثنايا المجتمع وتتغلغل في نسيجه ، " ولعل دار القراء التي نزلها عبد الله بن أم مكتوم في المدينة المنورة بعد معركة بدر الكبرى لتمثل نواة دور العلم المخصصة للقراءة والدرس " والتي تطورت في عصر الخلافة الراشدة بشكل واكب حركة العلم والتعلم والتعليم التي كانت تغذي باستمرار حركات الفتح ونشر الدعوة بالدعاة والعلماء .

المبحث الرابع

العلـوم الطبيعية

نبتدر هذه الجزئية بالإشارة إلي حقيقة قد يتغافـل عنهـا الكـثيرون مـن المهـتمين بالتـاريخ الإسـلامي سواء من المسلمين أنفسهم أو من المستـشرقين ، وهـي أن عـصر الخلافـة الراشـدة كـان الأسـاس للكـثير مـن العلـوم الطبيعيـة مثـل الترجمـة وعلـوم اللغـة وآدابهـا والتـاريخ والجغرافيا وبدائيات التاريخ الطبيعي الذي يشمل النبات والحيوان والمعادن ، إضـافة إلـي أساسيات علم الأرض الذي يتـصل بعلـم الجغرافيـا ، وكـل تلـك الأساسـيات للعلـوم إنمـا تولدت من خلال حركة الفتوح الإسلامية ومستلزمات الجيـوش وحركتهـا ، وسـنرى ذلـك بعد قليل ، والآن إلى التفصيل :

العلوم الطبيعية وتطور المجتمع الإسلامي :

بالرغم من موقع العلوم الطبيعية في منظومة العلم والتعلم والتعليم الـذي جـاء غـير متميـز في عصر الخلافة الراشدة إلا أنه بدا يتقدم بشكل ينبئ بمستقبل مبهر ، وذلك بسبب الارتبـاط العضوي الذي تبدت أواصره سريعاً بين العلوم الطبيعية من جهة وتطور المجتمع الإسـلامي الذي تدافعت وتيرته حثيثاً ، وذلك يتوافق مع ما سبق وقـدمنا عنـد الحـديث عـن العلـوم الطبيعية في عصر النبوة الزاهر من أن تلك العلوم وتطبيقاتها إن هي إلا أموراً تمليها الحيـاة وتطورها على المجتمع .

إلا أن المقولة السابقة لا ينبغي أن تؤشر إلي أن المجتمـع الإسـلامي كـان ينـدفع في اتجـاه التطور الإنساني بحكم حركة التاريخ ذات الدفع الذاتي أو التلقائي كمـا يـدعي الـبعض أو بحكم قانون الصدفة الذي يذهب إليه بعض آخر ، ولكن ذلك التطور الذي شهده المجتمع الإسـلامي قـد حـدث بفعـل أكثـر مـن فاعـل : **الفاعـل الأول** : هـو المرجعيـات الـشرعية

:

الإسلامية التي تحث كافة ديناميات المجتمع على التحرك والاندفاع في اتجاه الترقي بالإنسان والسمو به روحاً ومادة ، **الفاعل الثاني** : هو عقل المسلم الذي وعى وأدرك بعمق وحصافة مضامين ودلالات الإشارات المرجعية التي حثته على أن يقدح زناد عقله ويتعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون كما أمره الخالق العظيم بتدبر وتفكير ، **الفاعل الثالث** : السمة التي اتسم بها الإسلام كنظام اجتماعي يضع الأسس لحضارة متميزة ومنطق ثقافي فريد ، وقد قُدّر لذلك الإسلام بسمته المذكورة وفي سابقة لن تتكرر في التاريخ الإنساني لأن يدفع بالتاريخ الإنساني ذاته في حركة محسوبة ومفروضة في اتجاه ما يسمو بالإسلام حضارة وثقافة ، وهنا وهم الكثيرون أن التاريخ تحرك لصالح الإسلام ، ولكن الحقيقة أن الإسلام هو الذي دفع التاريخ في اتجاه السمو والترقي بالإنسانية ، فاكتسب تلك السمات وتميزت بها مراحله وأحقابه التي شهدت ظهور الإسلام وعاصرت ازدهاره وإيناعه ، وبذا يكون الإسلام قد صنع التاريخ على عينه وحسب مراده .

إن نظرة الإسلام إلي العلوم الطبيعية وتطبيقاتها بقدر ما كانت تنطلق من منطلقات شرعية تجد أصولها في المرجعيات الإسلامية التي تحث على الأخذ بتلك العلوم والتقدم فيها إلي غير حدود إلا أنها في ذات الوقت كانت تتوخى الواقعية وتضع كلاً من علمي الدين والدنيا في إطاره الصحيح وسياقه الطبيعي ، وهنا تبلور البعد الواقعي لنظرة الإسلام إلي العلوم الطبيعية في مأثورة صاغها علماء الأمة جيل بعد جيل وهي أن علم الدين للدنيا والآخرة وعلم الدنيا لتيسير سبل الحياة الطيبة والأخيرة تقود إلي طاعة الله وبلوغ جنته .

إن تحليلاً دقيقاً ومتأنياً لموقف المسلمين من العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة يصل بالمتابع إلي نتيجة مفادها أن المسلمين كانوا على وعي وإدراك كاملين بأن العلوم الطبيعية تجد منابعها ومنطلقاتها في القرآن والسنة ، وأن ما لم يُعرف أو يُدرك بالعقل البشري من العلوم والمعارف هو موجود في كتاب الله بإشارة أو أثارة ، ولكن العقل البشري قد قصر عن

التوصل إليها أو اكتشافها ، وأن المسلمين كانوا في ظرف موضوعي ووضع تاريخي يفرض عليهم تولية الإسلام ونشره الاهتمام الأول والهدف الصريح المعلن ، أما علوم الدنيا فسوف ترد في ثنايا الموجة التالية من الحركة الإسلامية الساعية نحو تأسيس الحضارة وإنشاء المدنية التي تأتي في إطار الأمر الإلهي بإعمار الأرض وإقامة الحياة الطيبة ومجتمع المتقين .

ما تقدم من تحليل قد وجد الدليل على صحته فيما قادت إليه الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام من وضع الأسس للعديد من العلوم الطبيعية ، فقد كانت تلك الفتوحات هي بداية الانطلاق نحو التعامل مع عناصر الوجود بشكل مباشر ومواجهة معطيات الطبيعية في صراحة ووضوح ، وهنا برز استعداد المسلمين المعتقدي والعقلي لتقبل ذلك التعامل والإقبال عليه واستثماره بشكل لم يكن متوقعاً ، ودلل على ذلك الظهور المفاجئ والتطور السريع للعديد من العلوم الطبيعية فور فتح المسلمين للبلاد المجاورة لشبه جزيرة العرب واستقرارهم فيها .

إن الإسلام يرى في الحضارة التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، ويرى أن أداة ذلك التعامل هي العلم ، ونظراً لكون حضارة الإسلام هي حضارة أخلاقية روحية فهي تبدأ أولاً بالدين مصدر الأخلاق ومنبع القيم ، فتنشر الإسلام وتبلّغ دعوته إلي بنى البشر ، ثم تواصل التعامل مع عناصر الوجود في إطار إعمار الأرض عن طريق العلم الذي يهدف إلي اكتناه حقائق تلك العناصر والعلاقات بينها فيتحقق إعمار الأرض وإقامة الحياة الطيبة وتُغّلف الحضارة والمدنية بالأخلاق والقيم دائماً وأبداً .

ويثار في هذا السياق سؤال مهم وهو إذا كان المسلمون في عصر الخلافة الراشدة قد توصلوا إلي أساسيات العديد من العلوم الطبيعية ، فلماذا إذن لم يبرزوا نتاجات تلك العلوم إلا في

مرحلة تاريخية تالية لعلها تبدأ مع بداية العصر العباسي ، أو بعد فترة من بدايته حيث استقرت الأوضاع لتلك الدولة ؟ .

والإجابة على السؤال المتقدم تكمن في طبيعة عصر الخلافة الراشدة وكذلك العصر الأموي وطبيعة الاهتمامات التي سيطرت على عقول أولياء أمور المسلمين في هذين العصرين ، فقد اتسم هذان العصران بأنهما عصرا نشر الإسلام وتبليغ الدعوة ، وأن العلوم الطبيعية التي وضعت أسسها في هذين العصرين ظلت على حالها من البساطة وارتباطها بمجريات الحياة إلي أن جاء العصر العباسي الذي أتسم بالفراغ والتأمل والعكوف على العلوم الطبيعية وتطويرها من خلال الاتصال بالحضارات الأخرى الذي كان قد قطع أشواطاً بعيدة وأبرز قدرة الحضارة الإسلامية على التحاور ببراعة .

العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة :

ثم ننتقل إلي الحديث عن العلوم الطبيعية في عصر الخلافة الراشدة ، ولعل أول ما يمكن أن يسجل بخصوص هذا الموضوع أنه قد خلا من البحث الجاد والدراسة الموضوعية ، بعبارة أكثر دقة أن عصر الخلافة الراشدة لم تتعرض له دراسة ذات شأن لتبحث فيه عن العلوم الطبيعية أو عن تطبيقاتها لا من الدارسين المسلمين ولا من غيرهم فيما يعرفون بالمستشرقين ، وقد اكتفى الجميع بتعليل ذلك بأن " أهل السنة المسلمين كانوا يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن والحديث لا يعتبر عقيماً فحسب ، بل يعتبر أيضاً الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " وقد سبق لنا مناقشة هذه المسألة وتقليبها على جميع وجوهها .

أما ثاني ما يمكن أن نلفت الانتباه إليه بنفس الخصوص هو أن عصر الخلافة الراشدة لا يزال يحتاج إلي بحث وتنقيب دقيقين ومستفيضين يستهدفان استخلاص العلوم الطبيعية

مما علق بها أو غُلّفت به من أفكار ذات طبيعة دينية شرعية أو ممارسات وسلوكات ذات صبغة واقعية عملياتية فرضتها طبيعة ذلك العصر والأهداف والمقاصد ذات الأولوية المطلقة في حياة الدولة والمجتمع وهي نشر الإسلام والدعوة إليه في كافة المناطق والأرجاء .

أما ثالث ما ينبغي أن يسترعي الاهتمام في نفس الصدد هو أن عصر الخلافة الراشدة قد أفرز بخصوص العلوم الطبيعية ظاهرة جديرة بالدراسة وهي أن تطبيقات العلوم في ذلك العصر قد عُرفت ومورست قبل العلوم نفسها ، وسوف نرى ذلك بعد قليل ، وهذا يعني أن التطبيقات والممارسات العملياتية قد وجدت أولاً قبل الجانب النظري الفكري للعلوم الطبيعية ، فالخبرة إذن والممارسة اللتان أوجدتهما الحياة وفرضتهما على الجميع كان لهما السبق على الشق الأصولي الفكري للعلوم الطبيعية ، وكان ذلك شأن العديد من العلوم التي وجدت في عصر الخلافة الراشدة مثل الترجمة والتاريخ والجغرافيا والهيئة والحيوان والنبات والأرض والمعادن وغيرها ، فمن هذه العلوم ما وُجد في شكل ممارسات وتفاعلات مع وتيرة الحياة ومنها ما وجد ولكن لم يكن يحمل اسمه المتعارف عليه .

أما رابع ما يمكن أن يثير الذهن أن ما تقدم كان أمراً طبيعياً لحضارة تخطو خطواتها الأولى وتتفتح على العالم والطبيعة والوجود وقد جاءت بمفاهيم أخلاقية وقيم دينية لها من الخصوصية والتميز ما يجعل التماس مع الطبيعة والوجود والتعامل مع موجوداتهما ثم التفاعل والتعاطي من الأمور التي تحتاج إلى المزيد من التريث والتعقل ، فالحضارة الإسلامية كانت لا تزال حضارة غضه تكون المفردات الأولية للمعجم الذي سوف تتعامل بموجبه مع الطبيعة والحياة ، ولم يسبق لها التعامل أو الانفتاح على أمم وأقوام أخرى تمتلك تجارب وممارسات وموروثات حضارية وثقافية ، ومن ثم فإن تطبيقات العلوم الطبيعية التي وجدت في عصر الخلافة الراشدة لم تكن إلا تجارب وممارسات ذاتية نابعة من التكوين العقلي والفكري للمسلمين في ذلك العصر ، وسوف يثريها بعد ذلك الانفتاح

على العالم والتعرف على الآخرين والتفاعل مع ممتلكاتهم وموروثاتهم سواء الحضارية أو الثقافية ، يضاف إلي ذلك التفاعل الذاتي الذي وصل إلي حد البركان الثائر الذي صهر كل ما يكتنزه بداخله ثم قذف به نفائس يستفيد منها كل العالم في وقت خيم الظلام على الجميع .

وسوف نستعرض فيما يلي جملة العلوم الطبيعية أو بالأحرى تطبيقات العلوم الطبيعية التي مارسها وخبرها المسلمون في عصر الخلافة الراشدة وجاءت مواكبه لمعترك الحياة وفي ثناياها وكأجزاء من نسيجها ، تلك الحياة التي سيطر عليها بشكل مطلق الجهاد في سبيل نشر الإسلام ومن ثم فقد مد الجهاد بظلاله على كل ممارسات الحياة وتفاعلاتها حتى منها الذي ارتبط بتطبيقات العلوم الطبيعية فجاءت في ركابه كعوامل مساعدة ودافعة لاستمرار قوة ذلك الجهاد واندفاعه ، وذلك من خلال الآتي :

- الترجمة :

ذكرنا أن الترجمة بدأت منذ عهد النبوة الزاهر وبناء على توجيهات الرسول الكريم الذي أشار على بعض الصحابة بتعلم لغات اليهود والفرس والروم لأن هذه اللغات كانت لغات الأقوام والأمم التي تحيط بالدولة الوليدة ، وسوف يكون لذلك أهميته على مستقبل العلاقات بين المسلمين وتلك الأمم سواء أكانت تلك العلاقات في اتجاه التعاون والتحاور أو في اتجاه التنافس والتصارع .

وتطورت حركة الترجمة في عصر الخلافة الراشدة بشكل لم يعد يقتصر على تعلم فرد أو عدة أفراد للغات الأمم ذات العلاقة ، ولكن تحول الأمر إلي اختلاط وتفاعل بين الجيوش الإسلامية ثم المجتمع الإسلامي ككل وشعوب الفرس والروم والقبط والبربر والترك وغيرهم

من الشعوب ، وأصبحت الترجمة ضرورة للتفاهم بين الشعوب والمجتمعات ولم تعد وسيلة للتعرف على بعض المعلومات عن شعوب أو مجتمعات بعينها .

كانت الترجمة حلقة الوصل بين المسلمين والشعوب التي دخلت إلي الإسلام فبدونها لم يكن في مقدور المسلمين شرح تعاليم الدين الجديد ، وفي هذه الظروف التاريخية المتعلقة بانتشار الإسلام في عصر الخلافة الراشدة لعبت اللغة دوراً مهماً حيث أقامت بين المسلمين العرب حاملي الدعوة إلي الدين الجديد والشعوب التي دخلت إلي الإسلام علاقة تقابلية أي في اتجاهين متقابلين :

فالعلاقة الأولى تمت عندما عبر العديد من الشعوب حاجز اللغة وقفز إلي الإسلام ، فاعتنق الدين الجديد وتعلم لغته وهجر اللغة الأصلية ، وبموجب ذلك اكتسب العروبة التي تمثل أصل أصحاب الرسالة والداعين إليها ، واختلط هؤلاء بالفاتحين ، ولم يكن للترجمة دور واضح ومؤثر في علاقة هؤلاء المسلمين الجدد بالإسلام ولغته .أما العلاقة الثانية فقد تمت عندما عبر الإسلام حاجز اللغة وقفز هو إلي العديد من الشعوب الأخرى التي اعتنقته وتعلمت لغته مع احتفاظها بلغتها الأصلية ، وهنا لعبت الترجمة دوراً مهماً حيث قام أبناء تلك الشعوب في المرحلة الأولى بنقل تعاليم الإسلام وشروحاته إلي لغتها ثم بنقل تراثها الحضاري والثقافي إلي اللغة العربية في مرحلة تالية حدث ذلك مع الفرس والأتراك والرومان واليونان والهنود والصينيين وغيرهم .

لم يقدر لأحد أن يؤصل لحركة الترجمة التي تمت في هذا الوقت المبكر من عمر الدولة الإسلامية ، وسبب ذلك أن النظرة للترجمة كانت دائماً نظرة ذات طبيعة علمية ثقافية حضارية ، ولم تكن نظرة ذات أبعاد دينية اجتماعية خاصة بالدعوة ونشر الإسلام والتفاعل الاجتماعي بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين ، إن من درس الترجمة في الحضارة الإسلامية كفرع من العلوم الطبيعية درسها كأداة أو معبر للمؤلفات والمصنفات في

العلوم الطبيعية من العربية أو إليها ، ولم يدرسها كأداة للتفاعل الاجتماعي داخل المجتمع الإسلامي الحديث ووسيلة لنشر الإسلام إلي جميع الأمم والشعوب .

– الطب والعقاقير :

أسلفنا أن الطب والعقاقير قد نشأ في عصر النبوة الزاهر وقد توسعت تطبيقاتهما بشكل متسق طيلة ذلك العصر وبترخيص من الرسول الكريم وبرع في هذا الفن الحارث بن كلدة الثقفي . وكان هو الأكثر شهرة ودرس الطب كعلم في بلاد الفرس ثم مارسه عندهم وأخيراً نقل علمه وخبرته إلي المجتمع الإسلامي في عهد الرسول الكريم ، وفي أواخر عصر النبوة ظهر آخرون ممن تتلمذوا على يدي الحارث وعرف منهم ابنه النضر بن الحارث وغيره .

شهد النضر بن الحارث في مجال الطب والعقاقير زمناً من عصر الخلافة الراشدة وظهر معه آخرون أبرزتهم الفتوحات الإسلامية ومصاحبتهم للجيوش الإسلامية لمعالجة المرضى والجرحى من المقاتلين .

كان التطبيب وعقاقير العلاج في عصر الخلافة الراشدة يغلب عليهما طابع الممارسة والحرفة المبنية على التجربة والخطأ أكثر منه علماً نظرياً مقروناً بتطبيقاته ، وذلك يعكس طبيعة العصر وواقع الحياة التي شُغل فيها المسلمون بالفتوحات ونشر الدعوة .

إن المنقب عن العلوم الطبيعية في الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي لابد أن يعطي عصر الخلافة الراشدة اهتماماً ملحوظاً ، وسوف يستنتج أن الفتوحات الإسلامية كانت بمثابة جامعة أفرزت أساسيات الكثير من تلك العلوم وتخرج فيها العديد من العلماء ، ولكنهم مارسوا مباشرة تطبيقات العلوم ولم ينقطعوا إلي تنظيراتها وفلسفاتها إلا في مرحلة تالية ، وهكذا يمكن القول بأن المسلمين في عصر الخلافة الراشدة بدأوا بتطبيقات العلوم ثم أردفوا ذلك بالفلسفة والتنظير عكس ما عهدناه في حضارات أخرى ، وعليه فالمسلمون كانوا

تطبيقيين منذ البداية ولم يكونوا فلاسفة منظرين إلا في المرحلة التالية ، لقد لاحظنا أن عصر الخلافة الراشدة ومعه العصر الأموي لم يدرسا بشكل كاف يمكّن من استخلاص الحقيقة التي سجلناها لتونا ، فالدارسون من غير المسلمين تحاشوا التدقيق في هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي تحت وطأة الحساسية المفرطة تجاه هذين العصرين لما تميزا به من اهتمام لا يضاهى بنشر الإسلام والفتوحات الإسلامية انطلاقاً من رؤيتهم القاصرة التي تفضي إلي أن الإسلام انتشر بحد السيف وأن فتوحات المسلمين لم تكن إلا غزواً واحتلالاً واستعباداً للآخرين ، وقد أعمتهم هذه الرؤية وثبطت من همتهم وهم الباحثون الماهرون عن أن يدققوا في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي بجد ومثابرة وموضوعية .

أما الدارسون المسلمون فهم يمرون على هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي مرور الكرام ويكتفون منها بوصفها بأنها كانت حقبة نشر الدعوة والفتوحات ، ولم ينفذوا ببصيرتهم إلي ما وراء ذلك وفي ثناياه ، ولو فعلوا لاكتشفوا أن عصر الخلافة الراشدة بقدر ما كان عصر الفتوحات ونشر الدعوة كان عصر التطبيق العلمي في ميادين كثيرة ، ولكن هؤلاء ينظرون إلي تلك التطبيقات من منظور حديث ومعاصر ، ولو سافروا إليها عبر الزمن وتعاملوا معها بعقلية زمانها وأفكاره لعلموا أنها تطبيقات لعلوم طبيعية بكل معنى الكلمة ؛ فإذا نظرنا إلي الحكماء والمطببين الذين يرافقون الجيوش الإسلامية لعلاج المرضى والمصابين بمنظار عصرنا لرأيناهم بدائيين لا علاقة لهم بمهنة الطب أو علمه ولكن لو نظرنا إليهم بمنظار ذلك الزمن لرأيناهم أطباء مهرة استخدموا المتاح من معطيات عصرهم في التطبيب والعلاج ، إلا أن ما كان ينقص هؤلاء ولم يتنبهوا إليه ، لأنه لم يكن بخاطرهم ، وليس لديهم وقت له ، هو أن يسجلوا ما يمارسون ، ويؤصلوا له ، ولو فعلوا لوضعوا مصنفات في الطب والصيدلة ، تشهد على براعتهم في ذلك الزمن ! .

وتأتي بعد ذلك مرحلة ثانية ، فالمسلمون عندما يستقر بهم المقام في منطقة من المناطق التي ينشرون الإسلام فيها ، يبدؤون مباشرة ودون تردد في التفتيش عن أسلوب حياة شعوب تلك المناطق والأقاليم في كافة مناحيها ومناشطها ، فتعرفوا سريعاً على الكثير من أساليب ممارسة الفرس مثلاً لمهنة التطبيب ووسائل العلاج والعقاقير ، دون أن يخوضوا في الإطلاع على مؤلفاتهم العلمية في علوم الطب والصيدلة ، وذلك لأنهم اعتادوا التجريب والممارسة والتطبيق ، فالتقطوا ذلك وأجّلوا الفلسفة .

ثم إن المسلمين الذين دخلوا الإسلام من عناصر وأجناس مختلفة أضافوا إلي الممارسين المسلمين لمهنة الطب والصيدلة في عصر الخلافة الراشدة قوة كبيرة حدث ذلك في فارس والشام ومصر ، وكانت هذه الحقبة الزمنية بمثابة التحضير والتمهيد لأن يضع هؤلاء بعد ذلك أو ممن جاء بعدهم مصنفات ذات شأن في الطب والصيدلة .

– الجغرافيا :

الجغرافيا كعلم تطلق على رغبة الإنسان في اكتناه الظواهر الطبيعية لسطح الأرض كالجبال والسهول والغابات والصحاري ، وما عليه من كائنات في اليابس أو الماء ، أو ظواهر بشرية صنعها الإنسان ، وما يتعرض له ذلك السطح من ظواهر جوية مثل الرياح والضغط والأمطار ودرجة الحرارة .

وما سبق يفيد أن مفردات الجغرافيا هي جميعها معطيات طبيعية من صنع الله ، حتى ولو تدخل في بعضها الإنسان بالترتيب أو بالتعديل ، وسلوك الإنسان إزاء هذه المعطيات التي تعرف كذلك بعناصر الوجود وموجودات الكون ينتج عنه الحضارة ، ووسيلة ذلك السلوك وأداته هي العلم .

وكان العرب قبل بعثة الرسول الكريم أهل تجارة وترحال ، يضربون في أقطار الأرض بغية التماس الرزق من الماء والكلأ أو من التجارة ، وكانت رحلتاهم الشهيرتان إلي الشام واليمن قد أكسبتاهم خبرة ودربة في التعرف على الطرق والمسالك ، والاهتداء بالنجوم في الليل ، والتعرف على طبيعة الأرض في النهار ، ومواسم الأمطار والرياح ، وما يرتبط بذلك من منتوجات وسلع ومحاصيل تعتمد عليها تجارتهم ، وإلي غير ذلك من أمور تتعلق بجغرافية شبه جزيرة العرب وبادية الشام .

وبعد انبعاث الإسلام في إقليم الحجاز الذي تتمثل أهم مدنه في مكة والطائف والمدينة ، زادت حركة المسلمين من هذه المدن إلي كافة حواضر شبه الجزيرة واستجدت أهم التطورات في هذا الشأن وهي حركة الفتوح الإسلامية وجيوشها ، وكان لذلك أبلغ الأثر في تطور إلمام المسلمين بالجغرافيا ، كخبرة ودراية وممارسة ، ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالي :

- لقد كانت الجيوش الإسلامية عند وضع خطتها العامة أو إستراتيجيتها تحدد بالتفصيل وعبر خبراء متخصصين ، مواقع الأقاليم المقصودة بالفتح بدقة شديدة ، وما يحيط بها من تضاريس أو مظاهر للسطح ، وتحدد كذلك أنسب الطرق والمسالك التي توصل إليها ، وما تشتمل عليه تلك المسائل من تضاريس كالصحاري والجبال والسهول والوديان أو الأحراش والمستنقعات والغابات ، والوقت اللازم لاجتيازها ، وأنسب أوقات الحركة والتوقف ليلاً ونهاراً .

- كانت خطة الجيش تتضمن وسائل وأدوات اجتياز أنواع التضاريس المختلفة مثل الجبال الوعرة أو الصحاري المقفرة المكشوفة أو السهول المنبسطة أو الممرات المائية ، وما تتطلبه كل وسيلة من كلفة مادية وجهد ، وأنسب أوقات الاجتياز ليلاً أو نهاراً .

• كذلك كانت خطة الجيش وحركته تتضمن أنسب الأماكن وأأمن المواقع للاستراحة والتزود بالمؤن والمياه ، ثم أنشئت بعد ذلك المعسكرات الدائمة على الطرق التي تسلكها الجيوش وأصبحت بمثابة محطات للإمداد اللوجيستي .

• وتدليلاً على حنكة وحصافة القائمين على أمر الجيوش الإسلامية وخبرتهم في شئون الجغرافيا ، كانوا يضّمنون خطتهم الخاصة بتحرك الجيش الطرق البديلة التي يمكن أن يسلكها الجيش الإسلامي للتمويه أو خداع الأعداء ومفاجأتهم ، كأن يبتعد الجيش مثلاً عن السير عبر الطريق الساحلي المعهود الملاصق لساحل البحر ، ويسلك طريقاً آخر غير متوقع ، وبذلك يستثمر عنصر المفاجأة التي أكسبته كثيراً من المعارك .

• كانت الجيوش الإسلامية تستعين بالخبراء الذين يحددون مواقع النجوم وأسماءها ، ويهتدون بها في السير ليلاً ، وربما يعكس ذلك خبرة العرب في علم الفلك أو الهيئة ، وقد استثمر ذلك في حركة الجيوش الإسلامية تحت جنح الظلام لمفاجأة الأعداء .

• برعت الجيوش الإسلامية في استخدام مظاهر السطح المختلفة والتضاريس كوسائل تكتيكية للهجوم المفاجئ أو التخفي أو التحصن في موقع استراتيجي كالجبال والوديان أو الأحراش والمستنقعات أو استخدامها كموانع طبيعية .

• كانت الجيوش الإسلامية على دراية وخبرة – من خلال ما تكتنفه من عناصر بشرية خبيرة – بالظواهر الجوية مثل الرياح والأمطار ودرجات الحرارة ، مما مكّنها من تفادى آثارها واستثمارها لمصلحتها .

• استعانت الجيوش الإسلامية بخبراء في الطرق والمسالك ومظاهر الجو ، وكان هؤلاء في مقدمة الجيش وبرفقة قيادته كمستشارين .

- وكان هؤلاء يحددون وقت الهجوم ، وأنسب الطرق أو الأبواب لدخول المدن أو محاصرة الحصون أو مهاجمتها ، وتحديد أسلوب القتال داخل المدن وتحديد طرق وإمكانات الانسحاب في حالات الضرورة .

- كان المسلمون يقومون بتحديد مواقع البلاد والمدن التي يدخلونها ، ويحددون خصائصها الجغرافية ، وطبيعة تضاريسها الداخلية ، والمظاهر الجوية التي تتعرض لها مثل الرياح والأمطار ودرجة الحرارة ، وأنواع المزروعات والمحاصيل التي توجد بها ، والنشاط الاقتصادي لسكانها ، إلي غير ذلك من المعلومات الجغرافية التي أصبحت بعد ذلك علم الجغرافيا .

- كان ذلك الإلمام العملي التطبيقي الذي صاحب الفتوحات والجيوش الإسلامية بمثابة الحافز للمسلمين لكي يحوّلوا تلك الخبرة والممارسة العملية إلي مصنفات في الجغرافيا في مرحلة لاحقة .

- بعد أن استقرت الأوضاع للدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة ، وترامت أطرافها وامتدت مساحتها ، اهتم المسلمون بشكل تلقائي بجغرافية دولتهم ، لمعرفة أرجائها وما يحيط بها من مظاهر السطح والتضاريس ، ومن أمم وشعوب أخرى ، حتى يمكنهم تأمين حدودها ، والدفاع عنها ، والانطلاق من هذه الحدود لمواصلة الدعوة الإسلامية .

- كذلك ظهرت حاجة الدولة في عصر الخلافة الراشدة إلي التعرف على الطرق واكتشاف الأخرى التي تربط بين أرجاء الدولة ، لتسهيل رحلات الحج والعمرة ، وتحديد محطات البريد، وطرق القوافل التجارية واستراحات [خانات] تلك القوافل ، وطرق عمال الخراج والزكاة والي غير ذلك من المهام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

- ارتبط علم الجغرافيا بعلم الفلك ، وزادت تلك الصلة باستقرار الدولة ، وبرزت أهمية ذلك في تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج ودور الأهلة في ذلك ، ومن الأسماء البارزة في مجال الفلك في عصر الخلافة الراشدة تميم الداري الذي حدد النجوم الثابتة والمتحركة .

- ازدهرت في عصر الخلافة الراشدة ظاهرة الترحال والسياحة لأغراض شتى منها طلب العلم والتجارة ونشر الدعوة والتعرف على البلدان ، وساعد على ذلك سيادة الأمن واستقرار أوضاع الدولة والانتعاش الاقتصادي ، وأينعت في هذا الجو العام ظاهرة نشر الدعوة بشكل سلمي عن طريق التجارة والعلاقات الاجتماعية .

- التاريخ :

كثيراً ما يخلط الناس على مستويات شتى بين التاريخ والتأريخ ، فالتاريخ هو جميع التطورات والأحداث والأحوال التي يمر بها كائن ما أو فرد أو مجتمع أو ظاهرة طبيعية أو إنسانية ، أما التأريخ فهو تسجيل الأحوال والتطورات والأحداث والظواهر كما جرت .

ولقد أصبح التاريخ علماً له أهميته فيما يقدمه من مادة أولية وسوابق وخبرات يستفاد منها في الحاضر وتمد ظلالها إلي المستقبل ، وله كذلك منهجه الذي يُستخدم في تحليل الوقائع والأحداث والتطورات ، ويستخلص منها القوانين التي يسترشد بها في توقع حركة المستقبل تعويلاً على تطور حركة التاريخ .

وللعرب قبل الإسلام باع طويل في التأريخ ولهم كذلك شأن في التاريخ ، فكانوا يؤرخون لكافة تطوراتهم وأحداثهم الهامة وسميت بأيام العرب ، وأرخوا كذلك لنوابغهم ولكبرائهم وكل ما له قيمة عندهم ، وكانوا من وقت لآخر يستعرضون تاريخهم ويعظمونه فخراً وتيهاً .

وعندما جاء الإسلام عمق من أهمية التاريخ ، وأبرز دوره بالنسبة للفرد والمجتمع ، ومنحه خصائص وأبعاداً جعلت منه مرتكزاً أساسياً في حفظ أصول الدين ومصادر الشرع بأمانة وصدقية ، ونقلها عبر الأجيال دون تعديل أو تحريف أو تبديل ، لأجل ذلك أورد القرآن الكريم قصص السابقين وأحداث الغابرين للعظة والعبرة والالتزام بالصدق والأمانة في التأريخ للأحداث والتطورات ، وفي ذلك قال تعالى ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .[4]

فالقصص التي وردت في هذه الآيات الكريمة هي التاريخ وقد بين الحق تبارك وتعالى فائدة تلك القصص ، فهي للعظة والعبرة والتفكر والتدبر والتأمل من خلال نقل الأخبار والأنباء التي ينبغي أن تنقل بصدق وأمانة .

---

[1] . سورة الأعراف : ١٠١ .
[2] . سورة الأعراف : ١٧٦ .
[3] . سورة هود : ١٢٠ .
[4] . سورة يوسف : ٣ .

وإذا التفتنا إلي أهمية التاريخ للإسلام والمسلمين ، لأمكننا أن نقف على جملة من الحقائق نتناولها فيما يلي :

- لقد كان ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأولين وأخبار الغابرين حجة أقامها الرسول الكريم والمسلمون ضد أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن القرآن هو من عند الله وأن ما ورد فيه هو الحق مصدق لما معهم ، وأنهم يعلمون ذلك يقيناً لأنه جاء في كتابيهم التوراة والإنجيل ، ومن ثم كان التاريخ حجة للمسلمين على أهل الكتاب وسيظل كذلك إلي يوم الدين .

- سيظل القرآن العظيم يحمل أخبار الأمم السابقة إلي يوم القيامة ، وسيظل مصدراً للعظة والعبرة لأنه محفوظ بحول الله وقوته من التعديل أو التبديل أو التحريف ، ويبين ذلك أهمية التاريخ في الحفاظ على رسالات الأمم وصون أهم مصادر شريعتها .

- يدل القرآن الكريم دلالة قاطعة على أمانة الرسول الكريم وصدقه في تبليغ ما نزل عليه من عند الله دون زيادة أو نقصان ، ويسوق ذلك الدليل الواضح على أهمية صدق الرواة وأمانة المؤرخين والثقة في المحدثين والمخبرين .

- تبدو أهمية التاريخ في رواية سيرة الرسول الكريم وأحاديثه التي تمثل المصدر الثاني للشريعة بعد القرآن العظيم ، وتعتبر دقة تلك السيرة والأحاديث وصدق نقلها ذات أهمية عظيمة في الحفاظ على المصدر الثاني للشريعة .

هكذا برزت أهمية التاريخ والتأريخ قبل وبعد ظهور الإسلام ، وقد كان الرسول على علم ووعي بقيمة التاريخ ، وأهمية التأريخ بصدق وأمانة ، فقال حديثه المشهور الذي وضع بموجبه قاعدة مهمة ، ولعلها الأهم في كتابة التاريخ ونقل العلم ،

ورواه أبو هريرة : " تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

وبرزت كذلك قيمة التأريخ في عصر النبوة الزاهر في كتابة القرآن الكريم من الوحي بدقة متناهية وفي قراءته وتلاوته وحفظه من قبل الصحابة ، وسماع الرسول له منهم وبصوتهم ، فكان يقول " إني أحب أن أسمعه من غيري " .

ومرة أخرى برزت قيمة التأريخ في حفظ أحاديث الرسول عن ظهر قلب وبدقة متناهية كذلك ، حيث لم تكن ثمة وسيلة أخرى للاحتفاظ بالأحاديث سوى الحفظ لأن الرسول منع كتابتها وتدوينها حتى لا تختلط بالقرآن الكريم وهنا كان للتأريخ أهميته بل أهميته البالغة حيث بات الحفظ والرواية والسماع والنقل والإخبار والإسناد كلها وسائل تحتاج إلي الدقة والأمانة والصدق ، إذ ليس هناك سواها للحفاظ على المصدر الثاني من مصادر الشريعة .

وفي عصر الخلافة الراشدة كان للتاريخ والتأريخ شأن آخر ، فقد اعتمدوا هجرة الرسول الكريم من مكة إلي المدينة ، وبداية تأسيس الدولة الإسلامية تقويماً لتاريخهم وأحداثهم ، وبدأ التاريخ الإسلامي رحلته الخالدة مع الزمن وبدأ تسجيل التاريخ الإسلامي في الذاكرة ، وكانت الفتوحات الإسلامية هي باكورة هذا التأريخ ، وظلت الأحداث التاريخية والتطورات والوقائع في عصر الخلافة الراشدة تعتمد على المشاهدة والرواية والنقل والإخبار ، وذلك لعدم إقبال المسلمين في تلك الفترة على كتابة التاريخ أي تدوينه . إلا أن ذلك التاريخ تم تدوينه في مرحلة تالية نقلاً عن الرواة والمحدثين .

لقد ظل المسلمون فترة طويلة يعزفون عن تدوين التاريخ ، ويعتمدون في التأريخ على الذاكرة والرواية والنقل ، وحجتهم في ذلك النهي الذي صدر عن الرسول الكريم عن تدوين

الحديث حتى لا يختلط بالقرآن ، وقد سحب المسلمون هذا الحكم على كل ما عدا القرآن : ولم يبدأ المسلمون في كتابة التاريخ وتدوينه إلاّ في عام ١٥١ هـ ، أي بعد قرن ونصف من الهجرة وذلك عندما طلب الخليفة العباسي المنصور من محمد بن إسحاق كتابة سيرة الرسول الكريم أي كل ما يتعلق به وبنسبه وشخصيته وأقواله وأفعاله وحياته الخاصة والعامة والغزوات والحروب التي شارك فيها . ولكن كتاب محمد بن إسحاق لم يقدّر لأحد أن يقف عليه إلا ابن هشام الذي قدّم له مختصراً ضمن سيرته الشهيرة التي وضعها في عام ٢١٨ هـ .

وما يستخلص من العرض المتقدم أن هناك قرناً ونصف قرن من الزمان منذ هجرة الرسول الكريم وتأسيس دولة المدينة تم التأريخ له اعتماداً على الذاكرة والمشاهدة والرواية ، ولم يصل إلينا عن طريق التاريخ المدون ، ومما لاشك فيه أن كتابة التاريخ اعتماداً على الوسائل الحسية بمفردها دون إفساح المجال للتحليل العقلي والتفكير المنطقي وإدراك حقيقة الأحداث والتطورات والإلمام بديناميات التطور التاريخي ، تعتبر من الأخطاء التي وقع فيها الكثير من المؤرخين ، وترتب على هذا المنهج العديد من التشويهات لأحداث وتطورات ووقائع تاريخية ذات شأن في التاريخ الإسلامي الذي يغطي الفترة غير المدونة .

فإذا كانت الوسائل الحسية المتمثلة في الذاكرة والمشاهدة والرواية هي المتاحة دون سواها لدراسة التاريخ الإسلامي خلال القرن ونصف التي تبدأ من هجرة الرسول الكريم ، فينبغي الاستعانة بمناهج مساندة مثل التحليل العقلي لتفاعلات الأحداث ، والسياق التاريخي لتطور الوقائع ، حتى يمكن تفادي تشويه التاريخ الإسلامي خلال تلك المرحلة .

وكان وضع التاريخ كشأن بقية العلوم الطبيعية تبدأ من طورها التطبيقي العملي ، فالتاريخ في عصر الخلافة الراشدة كان يعتمد على الوسائل الحسية المتمثلة في الذاكرة والمشاهدة ثم الرواية ، وقد تأثر المسلمون في ذلك إلى حد كبير برواية أحاديث الرسول الكريم ،

وبالرغم من أن التاريخ في ذلك العصر قد تشكل في نماذج عديدة إلا أنه ظل على نهجه غير المدون ، وبرز في هذا الصدد دور القُصّاص الذين يقدمون الرواية التاريخية فيما يسردونه من قصص يمزجون فيها بين الحقيقة والخيال ، وأصبح هؤلاء يمثلون أهم وسائل تسجيل التاريخ .

- اللغة العربية :

اللغة العربية ملكة العرب ، ملكوها وتمكنوا منها ، وحفظوها وحافظوا عليها واعتزوا بها إلي أن أعزها الله ورفع شأنها ، فجعلها لغة القرآن والذكر الحكيم ، لابد لكل مسلم أن يلفظ بها ، وأن يفهم معاني مفرداتها ، إذا أراد فهم معاني القرآن الكريم .

كانت اللغة العربية حكراً على أهلها ، حتى بعد مجيء الإسلام وانتشاره في شبه جزيرة العرب ، أما عندما خرج خارج نطاق شبه الجزيرة ، ودخله أناس من أجناس غير عربية ، أصبحت اللغة العربية في متناول كل المسلمين لأنها لغة دينهم وكتابهم ، ولم يكن المسلمون من غير العرب على علم وفهم ودراية باللغة العربية ، وبالتالي فقد شق عليهم فهم معانيها ، وأدخلوا عليها ما ليس فيها ، وهنا بدأ العرب يخشون على لغتهم من الألسن الدخيلة والألفاظ الغريبة ، فكان التحرك نحو حفظ اللغة والحفاظ عليها ، وتم ذلك بضبط قواعدها وجمع ألفاظها وتبيان الألفاظ الغريبة والدخيلة ، وكل هذا الجهد واكب حركة الفتوحات الإسلامية التي ازدهرت في عصر الخلافة الراشدة ، ويمكننا متابعة ما طرأ على علم اللغة العربية وما يرتبط بها من علم الأدب بمحوريه الشعر والنثر من تطورات ومستجدات في ذلك العصر فيما يلي :

• اللغة العربية في مواجهة حركة الفتوحات الإسلامية :

شكلت الفتوحات الإسلامية مرحلة مهمة وفاصلة في تاريخ تطور اللغة العربية ، وانطلاقاً من كون الفتوحات الإسلامية شهدت أوج تقدمها وانتشارها في عصر الخلافة الراشدة ، لذا فذلك العصر يعد عصر تطور اللغة العربية ، وإيضاح ذلك فيما هو تالي :

○ اختصت اللغة العربية بخصائص ذاتية ميزتها عن غيرها من اللغات الأخرى ، وتشير الدراسات اللغوية المقارنة إلي أن اللغة العربية تتميز بالبلاغة ، وإمكانية استعمالها في التعبير عن الخيال وكثرة مفرداتها ، وإمكانات الاشتقاقات ، وتوظيف تلك المفردات ، إضافة إلي سهولة التعبير وسحر البيان ، كذلك تتسم بالمرونة والمطاوعة لموضوعات شتى ومجالات متباينة ، ومن ثم كانت صالحة لغة للأدب والعلم معاً ، فواكبت تطور الحضارة واستوعبت العلوم والآداب قديمها وحديثها .

○ اعتمدت اللغة العربية من حيث الترتيب الزمني في جمع مفرداتها وتعبيراتها على مصادر ثلاث : تمثل المصدر الأول في البادية موطن العرب الأول والأساسي ، والمكان الذي استخدمت فيه اللغة ، ونبعت منه دون تعديل أو تبديل ، أما المصدر الثاني فتجسد في الشعر العربي المنسوب إلي شعراء معروفين ، حيث كان ذلك الشعر ثرياً بالمفردات والتعبيرات والصور البيانية التي شكلت أصلاً مهماً للغة العربية ، في حين جاء المصدر الثالث متشكلاً في القرآن الكريم الذي جمع ثروة لغوية عظيمة وتعبيرات رائعة أعجزت أصحاب اللغة أنفسهم ، وظلت هذه المصادر الثلاثة حافظة للغة من التأثيرات الخارجية أو الداخلية .

○ لقد كان مجيء الإسلام العظيم كرسالة سماوية كتابها القرآن الكريم موجهة إلي كل بنى البشر بلغة العرب إيذاناً بدخول اللغة العربية إلي مرحلة جديدة ، حيث لم تعد لغة

العرب فحسب بل أصبحت لغة الإسلام والمسلمين من كل الأجناس والأعراق ، وكان ذلك يعنى أن اللغة العربية لابد لها أن تتماس أو تحتك مع لغات أخرى ، وبغض الطرف عن مسألة التماس أو الاحتكاك التي سنتناولها لاحقاً فإن اللغة العربية أصبحت لغة عالمية تجاوزت أصحابها الأصليين إلي أقوام وأمم أخرى .

○ لقد اكتسبت اللغة العربية وقاراً ، واكتست بمسحة من الجلال والهيبة ، عندما أصبحت لغة شعائرية تؤدي بها شعائر ونسك الإسلام ، وتركت لغيرها من اللغات المحلية نشاطات الحياة اليومية التي يأتيها العوام .

○ يضاف إلي ما تقدم أن اللغة العربية كانت في كافة الأقاليم والأمصار التي دخلها الإسلام هي اللغة الرسمية للإدارة ودواوين الدولة وتعاملاتها الداخلية والخارجية ، وقد زاد ذلك من قيمة اللغة ورفع من شأنها ، وزاد من توق المسلمين الجدد إلي تعلمها وإتقانها ، وقد تم ذلك للكثيرين وأصبحوا فيها علماء مشهورين .

○ إزاء هذه الوضعية الجديدة للغة العربية لغة الإسلام والقرآن كان لا مفر من أن يحدث بعض الاحتكاكات وكثير من التماسات مع اللغات الأصلية للمسلمين الجدد ، وقد استتبع ذلك تجاوزات عديدة ومتنوعة على اللغة العربية من تلك اللغات ، ظهرت في شكل الألفاظ ، وهيئة المفردات ، ومعاني ودلالات التعبيرات ، وتركيب الأسلوب ، لأن اللغة العربية في ذلك الوقت لم تكن مُشكّلة أو منقوطة ، وكانت تعتمد على السماع وقريحة العربي وملكته التي تمثل قوام جبلته ، فلحق بالعربية أذاً كثيرٌ .

○ والعربية من جهتها كانت قوية التأثير شديدة البأس ، ملكت لباب المسلمين الجدد ، ونفذت إلي عقولهم وقلوبهم معاً ، فعشقوها وذابوا فيها ، فجعلتهم يهجرون لغاتهم ،

بل ويكتبونها بالحروف العربية ، وقدّر لهذه العلاقة الحميمة بين العربية والمسلمين الجدد أن تتحفنا بنتاجهم العلمي والأدبي الذي أضاف للعربية وزاد من قدرها .

أن العربية قد غدت على مشارق مرحلة جديدة . اختارها لها الله سبحانه وتعالى عندما قدّر لها أن تكون لغة القرآن العظيم ، وكانت الفتوحات الإسلامية هي فاتحة تلك المرحلة التي انطلقت من عصر الخلافة الراشدة ، ليأت على تلك اللغة يوماً تكون فيه منطق مليارات المسلمين ، عندما يعلنون شعار عقيدة التوحيد ويشهدون ألاّ إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله .

لقد كان اختيار الحق تبارك وتعالى للعربية لتكون لغة دينه الخالص الذي ارتضاه لعباده وجعله آخر الرسالات ولن يقبل من أحد سواه اختيار تشريف وتعظيم وإجلال . فهل نشعر بذلك اليوم نحو لغتنا ، يا حسرةً على العربية في أيامنا عندما صارت أعجمية وصرنا عليها دخلاء غرباء ، ويا لهف نفسي على الناطقين بها المتقنين لها الماهرين بها ، عندما يصبحون طرفة تثير سخرية وتندر السوقي والغوغاء ، الذين باتوا الأعم الأغلب من الناس ولا عجب فهم صخور معجمة .

إن عزاءنا وسلوتنا إزاء هذه اللغة العظيمة أنها ستظل محفوظة مكنونة من عبث الجاهلين ولهو الماجنين ، لأنها لغة القرآن الكريم . ارتبطت به نصاً وروحاً وأبدية وخلوداً . لقد أعزها الله بعز هذا الدين وكرّمها بتكريمه ، وبين ذلك الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم في إحدى عشرة آية ، نرى من المجدي والضروري معاً إيرادها في هذا المقام : .

قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[1]

---

[1] . سورة يوسف : ٢ .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .[6]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .[7]

---

[1] . سورة الرعد : ٣٧ .
[2] . سورة النحل : ١٠٣ .
[3] . سورة طه : ١١٣ .
[4] سورة الشعراء : ١٩٢- ٢٠١ .
[5] . سورة الزمر : ٢٧ و ٢٨ .
[6] . سورة فصلت : ٣ .
[7] . سورة فصلت : ٤٤ .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ .[3]

• قوام اللغة العربية [الشعر والنثر] :

اللغة هي أداة التعبير الصوتي ، وقد أخذ ذلك التعبير الصوتي شكلين : الأول ، جمل موزونة وتنتهي بقواف متشابهة قصداً وعُرف بالشعر ، والثاني : جمل متتالية ليست موزونة ولا تنتهي بقواف متشابهة قصداً وعرفت بالنثر ، وقد ثار جدال حول أي الشكلين ظهر أولاً ، إلا أن ذلك الجدال لم يحسم بعد ، ولم يقدّر لأحد أن يقنعنا بأن اللغة كتعبير صوتي ظهرت أولاً في شكل شعر أي كلام موزون ومقفى قصداً ، أم في شكل نثر أي كلام غير موزون وغير مقفى قصداً ، ولا يؤرقنا كثيراً حسم هذا الجدال .

والحاصل أن العرب قبل مجيء الإسلام قد برعوا في استعمال الشعر كشكل من شكلي اللغة العربية ، وقد تعددت ضروب الشعر العربي قبل الإسلام وتباينت أغراضه ، وتأثر إلي مدى بعيد بخصائص البيئة العربية الطبيعية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية . وساعدت اللغة العربية بثرائها اللفظي وغناها التعبيري في أن يأتي الشعر العربي قوياً معبراً رصين الأسلوب جزل اللفظ عميق المعنى بليغ الفكرة حسن التعبير .

---

[1] . سورة الشورى : ٧ .
[2] . سورة الزخرف : ٣ .
[3] . سورة الأحقاف : ١٢ .

ولما جاء الإسلام كان له منطقه الخاص في التعامل مع مسألة الشعر والشعراء ، فقد فرّق بين الشعراء المنافقين الماجنين والمؤمنين الصالحين ، ومن ثم فقد حكم على الشعر الملتزم الذي يصدر عن الشاعر المؤمن المحسن لأغراض تخدم الإسلام بأنه مباح ولا شيء عليه ، وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [1] ، وقد قال بن عباس في سبب نزول هذه الآيات أنه " تهاجي رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحدٍ منهما غُواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله هذه الآيات " .

وعن أبي حسن البراد قال :" لما نزلت " والشعراء .. " الآية ، جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، فقالوا : يا رسول الله ، والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء ، هلكنا ، فأنزل الله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [2] ، فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم .

وقد قرّب الرسول الكريم منه نخبة من الشعراء أمثال عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وكانوا جميعاً من صحابة رسول الله ، واشتُهروا بالتقوى والورع ، وعُرف شعرهم بطيب المقصد والفضيلة ، وقد مدحوا الرسول في قصائد مشهورة ، ويُؤثر عن الرسول أنه قال في الشعر " إن من الشعر لحكمة " .

وظل حال الشعر كذلك في عصر الخلافة الراشدة ، كانت كل مقاصده خدمة الإسلام والشريعة الإسلامية ، وظهرت أغراض أخرى مثل الزهد والجهاد في سبيل الله ، وقد

---

[1] . سورة الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .
[2] . سورة الشعراء : ٢٢٧ .

شجع الخلفاء الراشدون هذا الاتجاه الذي سلكه الشعر في تلك الفترة ، بل إن الخليفة الراشد الرابع الامام علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه كان شاعراً بليغاً ، جُمع شعره في كتاب نهج البلاغة وعليه فقد سمت أغراض الشعر في عصر الخلافة الراشدة ، وإن كانت أغراضه ظلت محدودة ومقصورة على ما يتصل بالعقيدة الإسلامية .

أما بالنسبة إلي النثر فلم يكن العرب فيه أقل بروعاً من الشعر ، وقد أتقنوا فن الكتابة منذ وقت مبكر ، ولكن مع مجيء الإسلام ظهرت قيمة الكتابة ، حيث أصبحت أداة التعامل والتواصل الرسمي داخل الدولة وخارجها ، وكان للكتابة شروطها وخصائصها ، وكذلك كان للكتاب ملكاتهم ، وما تمتعوا به من الذكاء وسعة الأفق وعمق الأفكار وتمكن من اللغة .

لقد كانت الكتابة تنظيماً مهماً من تنظيمات مؤسسة الخلافة أو الحكم ، وقد كانت الكتابة بوصفها هذا معلماً مهماً من معالم الحضارة الإسلامية ، وقد وجدت الكتابة في عهد الرسول الكريم بشكل أصيل وحيوي لتسيير شئون الدولة الإسلامية الأولى ، والكتابة كانت تعنى الرسائل والمكاتبات التي ترسل باسم الدولة كشخصية اعتبارية وبتوقيع ولى الأمر أو الحاكم ، وقد كان من كتّاب الرسول الكريم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وزيد بن ثابت وحذيفة بن اليمان ، وتعددت مجالات الكتابة ، فهناك كتابة ما ينزل به الوحي ، وكتابة العهود ، وكتابة الرسائل والكتب للأفراد والرؤساء والملوك وكتابة أموال الصدقات وكتابة المداينات والمعاملات وكتابة شئون ومصالح القبائل ، وكتابة ما يُصيب المسلمون من غنائم .. الخ .

واستمر هذا الفن من فنون اللغة ، وبرز كتنظيم ، وترسخ كإحدى ملحقات مؤسسة الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد كان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر الصديق ، وكتب زيد

بن ثابت وعبد الله بن خلف لعمر بن الخطاب ، وكتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان ، وكتب للامام على عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله وسعيد بن نجران الهمذاني .

ويمكن القول بأن الكتابة التي ظهرت في عصر النبوة الزاهر والخلافة الراشدة كانت بمثابة الأسس التي مهدت السبيل للكتابة في مجالات العلوم بكافة مجالاتها وتخصصاتها ، إلا أن الكتابة في العلوم كانت تحتاج دوماً إلي سهولة الألفاظ ووضوحها ، ومقدرة المفردات على أن تؤدي المعنى والمضمون المراد منها في المجال العلمي ، وقد قامت اللغة العربية بمهمتها في هذا الشأن على أكمل وجه ، ومن ثم ظهرت النتاجات العلمية لعلماء المسلمين في أرصن الأساليب وأدق المعاني .

- ضبط اللغة [النحو والصرف] :

النحو هو ضبط أواخر الكلمات إعراباً أو بناءً ، والصرف هو قابلية الكلمة لأن تظهر على آخرها علامات الضبط الثلاثة الرفع والفتح والكسر دون مانع ، وقد استشعر المسلمون — كما سبق الإيضاح — ضرورة ضبط اللغة العربية بسبب ما دخل على اللسان العربي من تأثيرات سببها الأجناس التي دخلت إلي الإسلام ، وسوف يؤدي ضبط اللغة إلي تقويم اللسان العربي والمحافظة عليه بعد أن شاع اللحن وكاد ذلك أن يهدد قراءة القرآن الكريم .

وقد ظهرت الحاجة إلي ضبط اللغة باستخدام النحو والصرف خلال عصر الخلافة الراشدة نظراً للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية التي صاحبت حركة الفتوحات الإسلامية وترتبت عليها ، وقد دعت تلك الحاجة الخليفة الراشد الرابع الأمام علياً كرم الله وجهه إلي أن يشير على أبي الأسود الدؤلي من بنى كنانة بأن يعمد إلي ضبط اللغة بالقوانين والقواعد حتى يحفظها من الدخيل عليها فابتكر صناعة النحو .

على أن نشأة علم النحو ترتبط بمدينتي البصرة والكوفة اللتين نشأتا في عامي ١٤ هـ و١٧ هـ على التوالي في خلافة عمر بن الخطاب ، فمنذ نشأة المدينتين وهما يمثلان مركزين مهمين لاستقبال واستقطاب القبائل العربية المتباينة اللهجات ، كما أن مدينة البصرة انفردت بموقعها الاستراتيجي الذي جعل منها مركزاً تجارياً يقصده التجار من الفرس والهنود والصينيين بالإضافة إلي أصحاب الحرف المختلفة والصناعات ، وعليه فقد كانت مدينة البصرة أول مدينة تهتم بالنحو واللغة واختراع قواعد ضبطها ، في مدينة البصرة بوضعها الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي المتميز نشأت أول مدرسة عنيت باللغة العربية واختراع القواعد التي تضمن لها الانضباط والثبات في وجه التغيرات دائمة الحدوث ، وبعد مئة عام تقريباً تبعتها مدينة الكوفة لتنشأ بها ثاني مدرسة تهتم بمسألة اللغة العربية وأدوات وقواعد ضبطها ، وتطورت المدرستان بعد ذلك تطوراً بيناً وبصفة خاصة في العصر العباسي الذي استقطب علماء اللغة من المدرستين إلي قصر الخلافة في بغداد لتتربع بغداد على قمة التطور الحضاري للحضارة الإسلامية وتترك للبصرة والكوفة ميزة التباهي بالسبق التاريخي على سبيل الترضية والإنصاف ، وسوف نتابع التحليل في الفصل التالي .

– أساسيات التاريخ الطبيعي :

أشرنا في أكثر من موضع إلي الاتجاه العملي للعلم الإسلامي منذ بداية ظهور الدولة الإسلامية وبروز حضارتها كنموذج للحياة الإنسانية ، وقد تجلى هذا الاتجاه مرة أخرى في عصر الخلافة الراشدة ونشاط حركة الفتوح الإسلامية فيما يتعلق بمجالات مثل النبات والحيوان والمعادن وهي التي تعرف بالتاريخ الطبيعي ، ويمكننا متابعة نشاط المسلمين في الحقبة المذكورة ليس بوصفهم منظرين ولكن بوصفهم تطبيقيين في مجالات الزراعة أو الفلاحة ، وتربية الحيوان ورعايته ، وفي التنقيب عن المعادن والتعرف عليها وتحديد خصائصها ، وذلك من خلال الآتي :

- نشاط المسلمين في مجالات الزراعة أو الفلاحة [النبات] :

بالرغم من طبيعة البيئة العربية التي أتسمت بندرة المياد وصعوبة المناخ ووعورة التضاريس وظواهر السطح إلا أنها لم تحرم العرب من الاستمتاع بعطاء الطبيعة وثرائها ، وقد جاء ذلك في شكلين : الشكل الأول أن ثمة مناطق في شبه الجزيرة العربية حباها الله المياد والأرض الخصبة والمناخ المعتدل فأثمرت جنات تنوعت زروعها وثمارها ، الشكل الثاني ما أورده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من حديث متكرر عن الأرض الميتة التي يحييها الله بالماء من السماء ثم الحديث عن العيون والأنهار محدر الخير والنماء ثم الحديث عن الجنان التي صُوّرت في أبدع وأبهى المناظر وما تكنه من أنواع الزروع والثمار التي يعرفها العرب والتي لا يعرفونها ولم يسمعوا حتى عنها ، هذان الشكلان من أشكال علاقة العرب بالنبات خلقا ألفة بين الجانبين ظهرت آثارها جلياً على العرب عندما أتاحت لهم الفتوحات الإسلامية فرصة التعرف والانفتاح على بيئات طبيعية ومناخية ونباتية تختلف عن بيئتهم ، فانكبوا عليها بشغف وشرعوا يدرسونها محاولين التعرف على خصائصها ورعايتها وعللها وإمكانية استنباتها في غير بيئاتها .

لقد خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية ميممين شطر الشرق والشمال والغرب وصادفوا في هذه الاتجاهات الثلاثة بيئات مختلفة عن بيئتهم ، وكانت هذه البيئات غنية بمختلف النباتات والزروع والمحاصيل والثمار ، وبالرغم من أن العرب كانوا مشغولين في الفتح ونشر الدعوة وتبليغها إلي الناس إلا أنهم لم يدعوا الفرصة تمر دون التعرف على ما صادفهم في مجال الزرع والثمر ، فبدؤوا رحلة التعرف والتعلم بشكلها العملي التطبيقي ، وكانت هذه هي مرحلة التمهيد للعلم التنظيري في مجال النبات البعد الأول في مثلث التاريخ الطبيعي .

• نشاط المسلمين في مجال الحيوان :

وبالنسبة إلي الحيوان فقد عرف العرب الكثير عن الحيوانات التي وجدت في بيئتهم قبل مجيء الإسلام ، وبمجيء الإسلام زادت معرفة المسلمين عن الحيوانات عمقاً واتساعاً ، كذلك عرفوا حيوانات لم يعرفوها من قبل ، ولم يتعمقوا في طباعها وخصائصها ، وذلك مما ورد بالقرآن الكريم حيث أشار إلي أصناف من الحيوانات والحشرات والدواب لم تكن معروفة من قبل .

وعندما نشطت الفتوحات الإسلامية وتعددت اتجاهاتها ، وولج المسلمون بيئات متعددة ومتنوعة صادفوا أنواعاً من الحيوانات لم يروها من قبل ، بل أنهم اكتشفوا أثناء المعارك وبالذات مع الفرس أنهم يستخدمون الفيلة في القتال ، فأعاد ذلك إلي ذاكرتهم أصحاب الفيل ولجئوا إلي بعض الحيل التي تؤثر على هذا الحيوان وتجعله ينفر من الاشتراك بالمعارك وذلك بعد أن درسوا طبيعته وخصائصه .

كذلك عكف المسلمون في البلاد التي فتحوها على دراسة وملاحظة طباع وخصائص الحيوانات التي توجد في تلك البلاد ، وكان ذلك في شكل تطبيقي عملي تمهيداً لإخراج المصنفات العلمية التي صدرت فيما بعد .

• نشاط المسلمين في مجال المعادن وطبقات الأرض :

تعرف العرب منذ وقت مبكر على العلاقة بين المعادن المختلفة الثمينة والخسيسة وطبقات الأرض وذلك ثابت في حضارات اليمن وحضرموت ، وقد كان شغف العرب بالمعادن الثمينة ورغبتهم في تحويل كافة المعادن إلي الذهب أثمن المعادن المعروفة هو أساس ما عرف فيما بعد بالسيمياء ولم يخف العرب هذا التوق بالذهب والسيمياء حتى بعد مجيء الإسلام ، ولكن ذلك لم يكن بشكل واضح خلال فترة الخلافة الراشدة وازدهار الفتوحات الإسلامية .

وبعد أن أستقر المسلمون في البلاد المفتوحة زاد شغفهم بالسيمياء وتحويل المعادن إلي الذهب وبصفة خاصة أن بعض الشعوب وبالذات في فارس ومصر كان لديها نفس الاهتمام بالإضافة إلي رصيد وافر من الموروث الحضاري في هذه النوعية من العلوم ، وهذا ما سيبدو فيما بعد عندما يضع المسلمون مؤلفاتهم في الكيمياء والمعادن وعلوم الأرض إلا أن الكثير من تلك النشاطات لم يقدر له أن يظهر في مصنفات !.

إن ما قدمنا يوضح كم كانت حقبة الخلافة الراشدة وما حفلت به من حركة الفتوحات الإسلامية لها أهميتها في ازدهار العلوم الطبيعية لدى المسلمين كنشاطات وممارسات وليس كتنظيرات من خلال انفتاحهم على أمم وشعوب مختلفة تحتكم على موروثات حضارية وثقافية متنوعة ، فكانت هذه الحقبة منطلقاً لهم إلي مرحلة جديدة من التحاور والتعاطي مع تلك الحضارات والثقافات ثم العطاء بغزارة للإنسانية جمعاء .

obeikandl.com